كتب إسلامية
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

مشاهد من حياة الرسول
(صلى الله عليه وسلم)

للأستاذ مأمون غريب

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

اللهُ

جلّ جلالهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

« لقـــد جاءكم رسول من انفســـكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

« قرآن كريم »

روى ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم :

« ان الله خلق الخلق ، فاختار من الخلق بنى آدم ، واختار من بنى آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشا ، واختار من قريش بنى هاشم ، واختارنى من بنى هاشم . فأنا خيار من خيـــار من خيار » .

(حديث شريف)

مقدمة

كان من منتهى آمالي أن اكتب دراسة مبسطة عن حياة النبى الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ..

وكان أملى أن تكون هذه الدراسة موضوعية بعيدة عن شطحات الخيال التى ملأت كتب السـيرة ، وفى نفس الوقت خالية من الأساطير التى وجـدت ايضا فى بعض الأعمال التى تاثر كتابها بلا وعى بالاسرائيليات كما أننى لاحظت أن بعض الكتب التى كتبها أدباء كبار عن السيرة امتلأت هى الأخرى بالخيال الذى قد يفرضه الطابع الأدبى حتى تأتى السيرة فى اطار مشوق جذاب .

لقد قرأت عشرات الكتب التى تناولت السيرة فى مختلف العصور. كما قرأت فى نفس الوقت أقوال ودراسات بعض المستشرقين قرأت السيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبى ، والسيرة النبوية لابن هشام ، وعشرات من الكتب القديمة والحديثة التى تناولت هذا الموضوع ، وقد لاحظت أن معظم دراسات هؤلاء المستشرقين تمتلىء بالحقد على نبينا الكريم ، ومن هنا جاءت هذه الدراسات بعيدة عن الموضوعية ، وان كان البعض منهم — وقد بهرتهم شخصية الرسول — لم يستطع الا أن يحنى قامته اجلالا لهذه الشخصية المبهرة فجاءت دراساتهم منصفة لهـذا الذى ملأ الأرض نورا وعدلا ، ورحمة وسلاما .

وأمام الدراسات الكثيرة التى قرأتها عن النبى الكريم وجدت بى شوقا عظيما أن اكتب دراسة مبسطة عن السيرة .. لأنه من

الصعب على القارىء العادى اليوم ان يقرأ المطولات عن حياة الرسول ، ودار فى ذهنى تساؤل .. لماذا لا أكتب هذه الدراسة بحيث تعطي للقارىء صورة عن النبى الكريم دون الدخول فى تفاصيل ، لا تنفع الا المتخصصين من ناحية ، ومن ناحية أخرى تكون هذه الدراسة مكثفة وموضوعية .. بعيدة عن شطحات الخيال التى ظهرت فى الكتب التى الفها بعض كبار الأدباء المعاصرين ، وبعيدة فى نفس الوقت عن الأساطير والاسرائيليات التى امتلأت بها الكتب القديمة التى تناولت حياة الرسول .

ولقد دفعنى الى هذه الدراسة محاولة وضع خطوط تحت احداث هزتنى فى السيرة .. كما أن حياة الرسول قد هزتنى من الأعماق فى بداية حياتي ، وأنا على أبواب الشباب .. فى هذه الفترة مررت بمرحلة قاسية . اعتقد أن كل شاب مر بها فى محاولة البحث عن الحقيقة ، ودارت فى ذهنى علامات استفهام كثيرة كلما حاولت أن اعرف كنه نفسي — أن أعرف أسرار العالم المحيط بى ..

من انا ؟

كيف جئت ؟

ولماذا جئت ؟

ما الهدف من هذه الحياة ؟

ما وراء هذه الحياة ؟

ما هو الوجود ؟

ما هو العدم ؟

.. اسئلة كثيرة حائرة عذبتنى كثيرا ، ووجدت ان هذه الاسئلة الحائرة تبادرت الى أذهان الناس فى مختلف عصور التاريخ ..

وتساءلت هل يمكن أن اعرف ؟ وما دليلى الى هذه المعرفة ، ووجدت أنه من الصعب أن اتوصل الى معرفة الحقيقة — فلا العقل البشرى بقادر بوسائله البسيطة أن يستوعب أسرار الوجود ،

ولا بقدرة الانسان بامكانياته المتواضعة أن يدرك سر الحيـاة والموت . . !!

أخذت أسبح فى بحار الفلسفة فلم تزدنى الفلسفة الا حيرة وكلما طرحت علامة استفهام كانت الاجابة علامة استفهام أشد غموضا . .

وزادت حيرتى ،

وطـال عذابى ، وعندما كنت اقرأ كتب العلم يزداد اقتناعى بأن العلم ليس بقدرته أن يجيب على هذه الأسئلة الحائرة التى تدور فى ذهنى ، وفى أذهان الآخرين . .

ان (نيوتن) العالم الكبير : مكتشف قانون الجاذبية يقول فى اخريات حياته :

« لست أدرى كيف ينظر العالم الى ولكنى أتراءى لنفسى كما لو كنت غلاما يلهو على شاطىء البحر ، واسلى نفسى بين الحين والآخر بالعثور على حصاة اكثر ملاسة أو صدفة أجمـل من المعتاد ، بينما كان محيط الحقيقة العظيم يمتد أمامى دون كشف ! » وقرأت لعالم كبير من علماء الطبيعة وهو شرنجتون » قوله :

« لقد اصبح بقدرة العلم أن يفسر الحياة باعتبارها تنفسا وحركة ، ونموا وتوالدا ، وتحليلا للأغذية فى الأنسجة . . الخ

ذلك انه لا يوجد شىء من هذه الظواهر لا يقع تحت سلطان العلم . . انها كيميائيات وطبيعيات ولكن هذا الشىء الآخر المصـاحب للحياة وهو الفكر يهـرب من دائرة العلم الطبيعى ، ويظل بعيدا عنه ، حتى لقد بدأ العلم الطبيعى يتجاهله باعتباره شيئا يخرج عن دائرة بصره ، وبهـذا نشأ فارق أساسى بين

الحياة والعقل ـــ فالحياة موضوع للكيمياء والطبيعة ، أما العقل فيهرب منها . بحيث يمكن تلخيص الانسان فى أنه يتألف من طاقة وعقل »

وهكذا أعلن العلم افلاسه فى فهم العقل !! وما أكثر ما قرأت من دراسات لعلماء أعلنوا عجز العلم عن فهم الكثير جدا مما يحيط بنا من أشياء .

واذا كانت الفلسفة لم تشف غليلى للمعرفة ، وكذلك العلم فلقد لجأت الى الدين وقرأت التوراة والأنجيل والقرآن ، وأخذت ادرس حياة الرسول ، وكلما وقفت أمام بعض الأحداث التى مرت به عليه الصلاة والسلام كلما ازددت اقتناعا بصدقه وعظمته .. يموت ابنه ابراهيم ، ويحدث كسوف فى الشمس ، ويعتقد البعض أن هذا الكسوف مشاركة من الطبيعة فى أحزان محمد .. ويسأله بعض الناس ، وهو فى أشد الحاجة أن يؤمن به هؤلاء الذين ساموه العذاب .. هل هناك علاقة بين هذه الظاهرة وموت ابنه .. فيجيب بكل الايمان :

« ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاينكسفان لموت احد او حياته » !

وبكل هذا الايمان العميق يقول :

« بعثت الى الناس كافة .. فان لم يستجيبوا . لى فالى العرب ــ فان لم يستجيبوا لى ، فالى قريش . فان لم يستجيبوا لى فالى بنى هاشم ، فان لم يستجيبوا لى فالى وحدى ! »

ومن أحاديث الرسول ، ومن سيرته : نرى أنفسنا أمام انسان لا يعرف الادعاء . انسان صادق . يمشى فى الأسواق ، ويجرى عليه ما يجرى على اى انسان نزل عليه قرآن كريم يستحيل أن يكون من صنعه ، فكيف ؟ وهو الأمى يأتى بهذا البيان الساحر . كما أن القرآن الكريم فى حديثه عن ظواهر الكون ، وعن تاريخ الأمم

السابقة شيء مبهر معجز . لا يمكن ان يكون كلام بشر . انه كلام الله سبحانه وتعالى :

« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

والذى يشرح الله صدره للايمان يشعر بهذا الشعور الرائع الذى لا يشعر به الا المؤمنون ــ الشعور بالأمن والأمان ــ الشعور بالراحة النفسية ــ ايمانه يجعله يرى الدنيا من خلال منظار بهيج . ويجعله يفلسف الحياة وما فيها بما يتوافق مع المبادىء العظيمة السامية التى نادى بها نبى الاسلام .

وبالطبع من الصعب كتابة السيرة بتفاصيلها .. فهذا يعنى كتابة مجلدات . كما تحتاج الى عمر طويل ، ولكنى هنا فقط أشير مجرد اشارة الى بعض مشاهد من السيرة المطرة وعندى مطمح فى شيء واحد .. مثوية الله ورضاه ..

المؤلف

طفولة محمد

(صلى الله عليه وسلم)

ما من مرة قرات عن طفولة النبى عليه الصلاة والسلام .. الا وذهب خيالى بعيدا يصور لى هذه الطفولة ، التى صهرها اليتم فى بوتقته ، وجعل منه رجلا مؤهلا لحمل رسالة السماء الى الأرض ، وهداية البشرية الى دين الاسلام . وحتى يستطيع ان يتحمل ما تحمله من أهوال فى سبيل نشر الدعوة .. تلك الأهوال التى يستحيل على اى انسان ان يتحملها ما لم يكن قويا .. شجاعا .. محاربا .. بجانب الصفات الأخرى التى تحلى بها من ذكاء القلب ، والصبر . والحلم .. كل تلك الصفات التى جمعت حوله القلوب .. وجعل البعض يؤثره على أقرب الناس اليه .

نعرف أن محمدا ولد يتيما ، فلم ير والده . لقد مات وهو مازال جنينا فى بطن امه ، وسماه جده عبد المطلب محمدا حتى يحمد فى السماء والأرض ، ثم يذهب مع حليمة السعدية التى حملته معها الى البادية .. ويمكث هناك حتى بلغ الرابعة من عمره وتعود به حليمة وزوجها الحارث لتعيده الى أمه التى تتشوق حبا وحنانا له ، وكان هذا فى موسم الحج حيث تزاحم الناس الى البيت العتيق ، وكان الوقت ليلا ، وجرفه سيل الحجاج المتدفقين .. لقد تاه عن حليمة والحارث ، واذا بالصبى الصغير محمد يفلت من زحام الناس ليجلس تحت شجرة . رابط الجأش .. هادىء الأعصاب — لا يبكي ولا يولول ، وهو الذى لم يتجاوز الرابعة من عمره ، حتى ياتى اليه من يعرفه ويعود به الى أهله .. لقد جلس تحت الشجرة

هادئا .. تاركا خياله يسرح فى تلك الأيام التى قضاها فى بنى سعد ويتذكر اخوته من الرضاعة ولعبهم معه عبد الله وانيسة والشيماء ، وكثيرا ما كان يبتسم وهو يسترجع هذه الأيام ويتذكر لعبته المفضلة حيث يخرج مع اخوته فى الليالى المظلمة ، ويلقون بعظمة بيضاء فى الخلاء الموحش ، ومن يبصر هذه العظمة ويعثر عليها يصبح رئيسا للجماعة ، وكان هو دائما الذى يعثر عليها .

وذهبت حليمة لجده تخبره بأن محمدا قد تاه منها فى تلك الليلة الشديدة الزحام ، وخرج عبد المطلب يمتطى صهو حصانه يبحث عن حفيده الحبيب مع جماعة من اقاربه منهم ، ورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وابو الحكم بن هشام (ابو جهل) وبعضا من متعقبى الأثر ، وعثر عليه ورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو ، فقد رأياه يجلس تحت الشجرة ، وحملاه الى جده عبد المطلب ، ثم ذهبا به الى أمه حيث عانقته عناقا حارا ..

ساعتها سألت آمنة بنت وهب حليمة السعدية لماذا جاءت به قبل الميعاد ، واخبرتها حليمة ان محمدا يميل الى الوحدة ، وهو كثير التأمل .. كما أنه كان يحرص على صعود الجبل .. وكل هذه الأشياء أخافتها أن يحدث له شىء أو يصيبه مس من الشيطان ؟

عاد محمد الى مكة ليكفله جده عبد المطلب .. وكان سعيدا بصحبة امه آمنة ، ورعاية أعمامه له ، ولكن التاريخ يقص علينا قصة تعطى مؤشرا لما سيكون عليه محمد فى مستهل أيامه — لقد مر بمكة جدب شديد . أمسكت السماء عن المطر ، فجفت الخضرة ، ونفقت بعض الحيوانات ، واصبح أهل مكة على أبواب كارثة ، وتجمع الناس يطلبون من عبد المطلب المشورة .. فقد عجز السحرة والكهان على أن تأتى السماء بسحاب ، وتوجه عبد المطلب مع هذه الجموع ، ومعه حفيده محمد حيث طافوا بالبيت سبعا ، ثم صعدوا الى جبل قبيس ، وتوجه ببصره الى السماء وهو يحمل محمدا وشاهد الناس عجبا ! شاهدوا الطفل الصغير يرنو ببصره الى السماء فى خشوع رهيب . لم يتفوه . لم ينطق بكلمة . ولكن قلبه كله كان متجها الى السماء .. بينما كان عبد المطلب يتوجه الى الله بهذا الدعاء :

« اللهم ساد الخلة وكاشف الكربة ، انت عالم غير معلم ومسئول غير مبخل ، وهذه عبداؤك وايماؤك بعدرات حرمك يشكون اليك سنتهم ، فاسمعن اللهم ، وأمطرن علينا غيثا مريعا مغدقا » .

ولم يكد تهبط تلك الجموع من الجبل الا وقد هبت الرياح .. وامتلأت السماء بالسحب ، وانهمرت الأمطار !

وتمضى الأيام ، وتقرر امه آمنة أن تذهب بمحمد الى يثرب ليزور معها قبر أبيه ، وليتعرف على اخوال جده من بنى النجار وكان عمره قد تجاوز السادسة بشهرين .

أخذت آمنة ابنها الحبيب الى صدرها ، وحدثته فى سنه تلك الصغيرة عن قصة زواجها بوالده ، وعن حياته القصيرة معها ، وانها تنوى زيارة قبره فى يثرب ، وانها سوف تأخذه معها الى حيث دفن والده ، وفى نفس الوقت يتعرف على اخوال جده عبد المطلب من بنى النجار ، ويقضى هناك شهرا يعرف شيئا عن هذه المدينة التى تجمع قبائل الأوس والخزرج واليهود ، وهى فرصة لأن يرى بلادا جديدة و .. رحب محمد بالفكرة ، وحان ميعاد الرحيل .. وركب مع أمه فى هودج على جملها بينما ركبت جاريتها بركة الحبشية على جمل آخر ، وجاء جده وأعمامه يودعونه ، وانطلقت القافلة فى طريقها الى يثرب ، وشعرت آمنة بانقباض لا تعرف سببه وهى تودع مكة وكأنها تودعها الوداع الأخير ، وفى الطريق شاهد محمد الأصنام التى تعبدها القبائل المختلفة ، ولم يجد فى نفسه راحة لما يفعله القوم من تقديسهم تلك الأصنام الصماء التى لا تنفع ولا تضر ، ولكنه فى سيره كان كثير الصمت .. يتأمل ما حوله من مظاهر الكون . السهول . والوديان ، والجبال .. وفى الليل كان يتأمل الكواكب والنجوم ، كأنه يريد أن يستشف كنه هذا الوجود .

ويذهب محمد الى يثرب .. يمكث بها شهرا .. يعرف خلالها الكثير من عادات القوم ومعتقداتهم ، ويتعلم هناك السباحة ، وتقرر أمه العودة ، وفى الطريق كانت الأم تحتضن وحيدها بلهفة وشوق .. كان هناك شعورا مبهما غامضا فى أعماقها بأنها تقترب من

الرحيل عن هذه الدنيا ، وانها سوف تترك وحيدها وحده فى الحياة وتهب ريح عاصفة عاتية ، ويتوجه محمد الى أمه فيرى وجهها وقد ملاه الاصفرار ، وهى لا تقوى على احتضانه ، ويراها تقاوم شيئا فوق طاقتها .. ان الرياح يزيد اندفاعها ، ورمال الصحراء القاسية تضرب الوجوه ، والأم العزيزة غير قادرة على الاحتمال فتصيح « واكرباه » .

ويشعر محمد الصغير بنياط قلبه تتمزق .. ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا . لقد علمه اليتم الكثير .. انه رغم سنه الصغيرة يحبس الدمع فى مآقيه .. حتى لا يزيد من احزان أمه فى هذا الموقف الصعب الذى هى فيه .. حتى أسدلت الأم جفونها وراحت فى غيبة الموت .. ساعتها انحنى عليها يبكى عليها أحر البكاء .. بينما حاولت أن تنزعه جاريته بركة الحبشية من احضان أمه .. وجاء رجال القافلة ليدفنوها فى « الابواء » ، ورجع محمد وحده الى مكة . حيث وجد فى استقباله أعمامه وجده عبد المطلب .. واحتضنه جسده ، وهو يعلم يقينا أنه سيكون لهذا اليتيم شأن عظيم ..

وعاش محمد فى مجتمع مكة . رأى عادات تهرأت وشاخت ولابد لها أن تتغير ..

رأى مجتمعا فقد عقله تحت ضغط تقاليد سخيفة حين يسجد لصنم لا ينفع ولا يضر كما رأى عادة وأد البنات ، ورأى هذا المجتمع وقد امتلأ بألوان من النساء والاستهتار . فهناك أصحاب الرايات الحمر .. أو الخيام التى ترتفع عليها الأعلام الحمراء يرتادها عشاق اللذة الحرام . بجانب انتشار الخمر والميسر والربا ، وشاهد المجتمع ، وهو ينقسم الى مجتمع السادة ومجتمع العبيد ، أو الذين يملكون كل شيء والذين لا يملكون اى شيء ! كما وجد أن مجتمع الجزيرة العربية ممتلىء بالقبائل المتنافرة المتناحرة : القوى يتربص بالضعيف ، ولم يكن فى هذا المجتمع سوى فئة قليلة من الذين يعبدون الله على دين ابراهيم الخليل ، وقلة من اليهود فى يثرب ، وندرة من المسيحيين : أما الأغلبية فهى التى تعبد الأصنام .. بعد أن طال عليهم الأمد ، ونسوا دعوة ابراهيم واسماعيل .

تلك الدعوة التى انتشرت بين قبائل العرب عندما جاء ابراهيم عليه السلام من الشام ، وترك هاجر وابنها اسماعيل عند البيت الحرام .. وشب اسماعيل ، وجاء ابراهيم ليقيم القواعد من البيت وهو يدعو الله سبحانه وتعالى بهذا الدعاء :

« ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

وكثر دعاء الخليل لسكان هذا المكان الطاهر :

- **« رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات » .**
- **« رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام »**

لقد تزوج اسماعيل من قبائل جرهم ، وعاش فى هذا المكان الطاهر يدعو الى الله ، وقد انجب من زوجته السيدة بنت مضاض ابن عمرو الجرهمى اثنى عشر ابنا ، ودفنت أمه هاجر بجوار الكعبة وهى فى الستين من عمرها ، ولكن الزمن يمضى ، والناس تنس رحيق دعوة الاسلام الذى جاء به ابراهيم ، ويطول العهد ويمتلىء البيت العتيق بالأصنام ، ونرى هناك فى هذا المجتمع من يحاول أن يشرئب بعنقه الى أيام ابراهيم ، ويرى القوم قد ضلوا السبيل .. فها نحن نرى رجلا كقس بن ساعدة الأيادى يخطب فى سوق عكاظ ، ومن بين خطبه مثل هذه الخطبة :

« ان فى السماء لخبرا ، وان فى الأرض لعبرا . ما لى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ؟ أرضوا بالاقامة فاقاموا أم تركوا هناك فناموا؟! أقسم قس بالله قسما لا ريب فيه : ان لله دينا هو أرضى من دينكم هذا .. ثم قال :

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر . ورأيت قومى نحوها يمضى الأصاغر والأكابر . لا من مضى يأتى اليك ولا من الباقين غابر أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر ... » .

فى هذا الجو رأى محمد كل شىء ، وعرف الكثير ، وعرف أنه ينتسب الى ابراهيم الخليل ، وهو الذى قال فيما بعد :

((ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم . . فأنا خيار من خيار)) .

. . ان محمدا الصغير يرى ما حوله ، ولكن لا يشارك الناس عاداتهم وتقاليدهم ، ويسمع أن عمه الزبير سوف يسافر فى رحلة الشتاء الى اليمن ، ويطلب من عمه أن يصحبه فى هذه الرحلة . فهو يحب الرحلات حبا شديدا : انه يرى فيها أشياء نهزه من الأعماق يكفى أن يسير وسط مظاهر الطبيعة متأملا كون الله الفسيح وما فيه من آيات . ليشعر راحة نفسية عميقة وهو يتأمل نجوم السماء ، ويرى تتابع الليل والنهار ، ويفكر فيما وراء هذا الكون . .

ويسافر مع عمه الى اليمن . انه دائم الصمت والتأمل ، ولكن مشهدا يحدث فى الطريق يكشف عن معدن محمد . . « الصبى » الذى علمه اليتم الشجاعة والاقدام . القافلة تبلغ واديا ضيقا ، واذا بفحل من الابل يثور ثورة عارمة ، ويدب الفزع فى قلوب الجميع ، وتتوقف القافلة عن السير ، واذا بالجميع يشاهدون عجبا : بينما لا يستطيع أحد أن يقترب من الفحل الهائج . ينزل محمد من بعيره ، ويتقدم الى الجمل ، وابتسامة عريضة على شفتيه . ثم يتقدم أكثر نحو الفحل ويربت عليه ، فاذا بالفحل يهدأ ، واذا بمحمد يجعله يبرك على الأرض ويركبه . لقد أسلم له هذا الفحل قياده الى أن عبر هذا الممر الضيق وبعدها عاد محمد ليركب جمله وقد ارتسمت على وجه عمه الزبير ابتسامة الرضا بابن أخيه الشجاع ،

وهكذا . علم اليتم محمدا الكثير .

وبموت جده عبد المطلب زادت أحزان محمد ، ولكن سرعان ما احتضنه عمه أبو طالب ، وتمضى الأيام . . ويقرر عمه أبو طالب السفر الى الشام فى رحلة الصيف فيتقدم محمد الى عمه قائلا :

ــ الى من تكلنى يا عماه . لا أم لى ولا أب .

ويشعر أبو طالب كأن الدنيا تدور به . كيف يترك أحب الناس الى قلبه وحيدا فى مكة ؟ وأخذه معه ، وكعادة محمد ما أن سارت القافلة ، وأخذت طريقها نحو الشام حتى أطلق لروحه العنان باحثا عن سر الكون ! كان معه فى هذه الرحلة أبو بكر ، وكان محمد فى الثانية عشرة من عمره ، وكان أبو بكر فى العاشرة . **وعند أحد الأديرة فى الصحراء استوقفهم أحد الرهبان ، واقترب من محمد وأخذ يتحدث معه ، وعرف الراهب أن هذا الصبى سيكون آخر رسل السماء ، وتقدم من عمه يسأله :**

ــ من هذا الصبى ؟

ــ انه ابنى . .

ــ ليس ابنك ولا ينبغى أن يكون أبوه حيا !

واقترب من محمد يتفحص عينيه الحمراوين :

ــ هذا نبى !

ــ وما النبى ؟

ــ الذى يأتيه الخبر من السماء !

ــ وكيف يأتيه الخبر من السماء ؟

ــ لينبىء أهل الأرض !

لم يتصور أبو طالب أن يكون هناك انسان يوحى اليه من السماء ، ولم يعر قول هذا الراهب أى اهتمام ، وانطلقت القافلة ، حتى اذا ما اقتربت من قرية (الكفر) التى تبعد عن بصرى ستة أميال استوقفهم الراهب (بحيرا) الذى صنع للقافلة طعاما ودعاهم على غير عادته لتناول الطعام معه . فهذه هى المرة الأولى الذى يدعوهم هذا الراهب الى الطعام ، وهم الذين كثيرا ما يمرون عليه فلا يكترث بهم ، فلماذا دعاهم هذه المرة الى الطعام ! حضر كل من فى القافلة ، ولم يتخلف سوى محمد ، وتفرس فيهم فلم يجد الغلام فسأل أبا طالب :

— الم يتخلف احد ؟

— لم يتخلف سوى أحدثنا سنا .

— فليحضر .

وجاء محمد واخذ (بحيرا) يتفحصه ، ويطيل النظر اليه وساله :

سأسألك . بحق اللات والعزى أن تخبرنى عما أسألك عنه .

فرد محمد :

— لا تسألنى باللات والعزى شيئا . فأنا ابغضهما ، وأخذ يسال محمدا عن أشياء كثيرة .. وعما يراه فى منامه ، وان كان ما يراه يتحقق أم لا ، وعرف أن كل ما يراه محمد مناما يتحقق فى الواقع ، وطلب من محمد أن يكشف عن ظهره . عندئذ لاحت عليه الدهشة كما لاحت على القرشيين الدهشة أيضا وهم يرون (بحيرا) ذلك الشيخ الجليل يقبل موضعا من ظهر محمد . ثم تقدم نحو (أبو طالب) فسأله :

— ما هذا الغلام منك ؟

— انه ابنى .

— ما هو ابنك ولا ينبغى أن يكون ابوه حيا ؟

— انه ابن أخى .

— أين ابوه ؟

— مات وامه حبلى به ؟

— صدقت !

— وأين امه ؟

— توفيت قريبا .

— صدقت .. ارجع بابن اخيك ، واحذر عليه اليهود لأن له شأنا عظيما . اسرع به الى مكة .

ويرد عليه أبو طالب :

ـ ان كان الأمر كما وصفت فهو فى رعاية الله .

لم يكن ابو طالب مؤمنا بأقوال الكهان ، ولا كان مصدقا لما سمعه من الراهب ، ولكنه خشى ان يصاب محمد بسوء فيقال أنه لم يسمع كلام الراهب ، فطلب من بعض غلمانه أن يعودوا بمحمد الى مكة ، وهنا طلب صديقه أبو بكر (عتيق بن أبى قحافة) أن يعود مع صديقه الى مكة ، وعادا سويا .

وهنا يجب أن نتوقف قليلا عند آراء بعض المستشرقين الذين قالوا أن محمدا تأثر تأثرا كبيرا بما قاله له (بحيرا) وبالتالى فقد تصور محمد كل ما قاله له هذا الراهب عندما كان صغيرا وقال لنفسه لماذا لا أصبح نبيا بالفعل حتى تتحقق لى المكانة فى قريش والقبائل الأخرى ؟

وهذا الكلام الذى قاله المستشرقون كلام لا يستحق الرد ، لأنه كلام يدعو الى الضحك ولا يمكن أن ناخذه ماخذ الجد .. لأنه من المستحيل بالطبع أن تكون هذه الرسالة المتكاملة التى جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام نتيجة لما بثه (بحيرا) فى ذهنه !

فهل كان (بحيرا) عالما بالشريعة الاسلامية التى جاء بها محمد ... بما فيها من عبادات وقيم وتشريع ، وقرآن يعجز البشر أن يأتوا بمثله ! طبعا ما قاله هؤلاء المستشرقون محض افتراء ، وهم لا يستحقون فى حديثهم عن محمد فى هذه النقطة عناء الرد . بل ان هذا الراهب (بحيرا) عاش فى ضمير التاريخ : لا . لأنه كان راهبا متعبدا فى الصحراء ، فما أكثر هؤلاء الرهبان الذين عاشوا وماتوا لا يدرون بأحد ولا أحد يدرى بهم . ولكن (بحيرا) عاش فى التاريخ نتيجة مقابلته لسيد البشر .. لمحمد عليه الصلاة والسلام الذى جاء بآخر رسالات السماء .

شباب محمد

(صلى الله عليه وسلم)

شباب محمد طاهر كالثوب الأبيض .. فما عرف شبابه اللهو والمجون ، ولا انغرس فيما انغرس فيه أترابه من شباب قريش فى السهر فى المنتديات لسماع الأغانى والشعر وضرب الدفوف ، ولا احتسى خمرا ، ولا عاش عالة على أحد .. ففى صباه كان يرعى الغنم ، وها هو فى شبابه ما يزال يرعى الأغنام ليكسب قوته بعرق جبينه ، وكأن الأقدار تمهد له لتحمل عبء الرسالة .. فالرسالة تحتاج الى صبر وشجاعة واقدام ، وفى رعى الأغنام وسيلة ليتعلم الصبر ويتحمله ، كما علمه اليتم كيف يعتمد على ذاته ، وجعله يقدر الأمور ويوزنها بميزان صحيح .

كل ما يروى عنه أنه حاول مرة ، وكان فى الثالثة عشرة من عمره أن يسمر كما يسمر الشباب ، وقد رأى الشباب وقد خرج فى ليلة مقمرة لسماع الأغانى ، أو ما يقوله الشعراء .. أو ما يرويه الشيوخ من الأساطير ، وفكر لماذا لا يلهو ليلة فى حياته كما يفعل اترابه من الشباب .. لقد ترك الغنم فى صحبة أحد الرجال ، وهو يسمع صوت القيان يغنون فى عرس بمكة ، وعندما اقترب من الأصوات ، لم يشعر بشىء .. لقد أخذته سنة من النوم ثم لم يلبث أن راح فى نوم عميق ، وظل فى نومه الى أن لفحته أشعة الشمس ، وعزم أن ينام نهاره ليقضى ليلة ساهرة ، واذا ما حدث له بالأمس يحدث له فى نفس الليلة ، وفكر طويلا ، واهتدى أن مثله ما ينبغى أن يعيش اللهو ، وهو الذى قضى حياته مفكرا فى

الكون وما وراء هذا الوجود : انه يكاد يستشف ما وراء هذا الكون بالهامه .. انه ما خلق لهذا ! ان قلبه ينقبض عندما يدخل الكعبة فيرى الأصنام الصماء التى لا تنفع ولا تضر .. ماله ؟ وما انغرست فيه مكة من لهو وعبث ومجون .. لقد عزم العقد بعدها أن لا يفكر فى هذا الأمر ..

انه يعرف ما يدور فى هذا المجتمع المكى من عادات وتقاليد ، ويعرف أن هناك قلة من الحنفاء الذين يعبدون الله على دين ابراهيم الخليل .. من امثال ورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل .. وكان زيد هذا يهرب من عمه الخطاب الذى كان يؤذيه ويضربه لأنه يسفه دين الآباء والأجداد ، وكان منتهى آماله أن يكف عمه آذاه عنه ويتركه لحال سبيله ، ويعبد ما استقر بوجدانه دون تدخل من احد ، فليس عنده القدرة على مواجهة الناس ، بل يكفى مايتعرض له من سفهاء الشباب ..فهم يرمونه بالحجارة فيفر هاربا الى شعب الجبـــال ..

وقد ورد عن زيد بن عمرو بن نفيل قوله :

يا معشر قريش .. والذى نفسى بيده ما اصبح منكم على دين ابراهيم غيرى ..

ومن أشعاره المشهورة قوله :

اربــا واحــدا أم ألف رب ... ادين اذا تقســـمت الأمــور
فلا عــزى أدين ولا ابنتيهــا ... ولا صــنمى بنى عمرو أزور
ولكن أعبــد الــرحمن ربى ... ليغفر ذنبى الــرب الغفــور

وزيد هذا قد مات قبل بعثةمحمد بخمس سنوات . وقد تزوج ابنهفاطمة بنت الخطاب شقيقة عمر بن الخطاب ، والتى كانت السبب فى اسلامه ..

مهما يكن من شىء .. فقد كان محمد يعرف كل ما يدور فى مجتمع الجزيرة العربية ، وكانت روحه هائمة دائما فى البحث عن الحقيقة

كان العالم فى حاجة الى رسالة جديدة تعيد الأمور الى نصابها .. تعيد القيم النبيلة ، تصبح هناك قدرة للتعايش بين الذين يملكون والذين لا يملكون . كانت الحيـــاة تتطلع الى مجتمع جديد يسوده العدل والرحمة والمساواة ! الفقير يجد نفسه بجوار الغنى .. الضعيف لا يأكل حقوقه القوى .. الاستعمار الذى جثم على العالم المورف حينذاك كان قد تهرأ وشاخ . متمثلا فى الامبراطوريتين الرومانية والفارسية ، ومن هنا كانت البشارات التى قال بها الرهبان فى صوامعهم بأن نبيا قد اظل الناس زمانه .. هذا النبى الذى بشر به عيسى بن مريم .

« واذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعـــدى اســـمه أحمد » .

فالانجيل والتوراة كانا يبشران بالنبى المنتظر .

« الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل » .

.. ان الأيام تمر .. ومحمد يعمل فى رعى الغنم ، مبتعدا عن مباذل مجتمعه ، وكانت خديجة « بنت خويلد » من أثرياء قريش تبحث عن رجل أمين يتولى تجارتها ، وكانت مع ذلك من أعرق بطون قريش .. كان قد سبق لها الزواج من عتيق بن عائد المخزومى ، وعندما مات تزوجت (أبو هالة بن زرارة التميمى ، وأنجبت منه (هالة وهند) .. الا انها طلقت منه وكان عمرها خمسة وعشرين عاما ، تقدم لها الكثيرون يطلبون الزواج منها ولكنها رفضت ذلك ، وتفرغت لتجارتها العريضة ، ومرت الأيام واستأجرت (محمد بن عبد الله) ليدير لها أمور تجارتها فى رحلتى الصيف والشتاء .. رحلة الشام واليمن ، وذهب محمـــد الى تلك الرحلة مع عبدها (ميسرة) .. ونجح محمد فى أمور التجارة .. وربحت خديجة أرباحا كثيرة كان محمد قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وجاء ميسرة من الرحلة يقص على سيدته ما رأى من أحوال محمد وأمانته وقدرته على البيع والشراء رغم قلة تجربته فى أمور التجارة ،

وعرفت خديجة عن محمد الكثير .. فهى تعرف أن قومه يسمونه (الأمين) وتعرف أنه عزوف عن لهو مكة وعبثها .. وتعرف عنه أيضا أنه دائم الصمت والتفكير ، وأنه لم يسجد لصنم قط .. كما سمعت من ميسرة ، أن محمدا فى طريق الرحلة دائم التأمل ، وعندما يشتد الحر يرى كأن غمامة من السحاب تظله وتقيه الحر ، وهفت نفس خديجة الى هذا الشاب القوى الوسيم الأمين .. انه عندما يكلمها فى أمور تجارتها لا يرفع عينيه اليها ، ولكن كيف تكلمه فى أمر زواجها منه ، وهى تكبره بخمسة عشر عاما !

وقررت أن تتحدث فى أمر الزواج من محمد .. ارسلت اليه احـــدى صديقاتها (نفيسة بنت منبه) ، وعرضت عليه الزواج من خديجة فوافق محمد عن طيب خاطر ، وذهبت نفيسة الى خديجة تخبرها بقبول محمد ، فشعرت بالسعادة تغمرها وارسلت اليه وقالت له :

« يا ابن عم قد رغبت فيك لقرابتى منك ، ومشرفك فى قومك وامانتك فيهم ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك ، فاخطبنى من عمى عمرو بن أســـد » .

ذهب محمد الى أعمامه يخبرهم بما استقر عزمه عليه ، وبارك أعمامه تلك الخطوة ، وذهب معه عمه حمزة بن عبد المطلب الى عمرو ابن أسد فخطبها اليه فقبل ، ورأت خديجة أن تذبح شاة ويدعى اليها عمها ومحمد وأعمامه ، وجاء مع محمد : ابو طالب ، وحمزة ، ورؤساء مضر .. وأكلوا ، واستمعوا الى أبى طالب وهو يقول :

« الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم زرع اسماعيل وضئضىء (أصل) معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وشوكة حرمه وجعل لنا بيتا محفوظا ، وحرما آمنا وجعلنا الحكام على الناس ثم ان ابن أخى هذا محمدا بن عبد الله لا يوزن به رجل الا رجح ، وان كان فى المال قل ، فالمال ظل زائل .. وأمر حائل .. ومحمد ممن قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد ، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله كذا من مالى ، وهو والله يعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم » ..

وتكلم ورقة بن نوفل قائلا :

« الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ، وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم ، فاشهدوا على معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار وسكت ورقة ، وقال أبو طالب :

ـ أحببت أن يشركك عمها .

فقال عمها :

ـ اشهدوا على يا معشر قريش انى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد .

وشهد على ذلك كبار قريش .

هذا وقد كان زواج محمد من خديجة بعد قدومه من رحلة الشام بشهرين ، وعدة أيام .

ويمضى شباب رسول الله نقيا طاهرا ، يعمل فى التجارة .. ويكثر من التأمل ، ويعيش حياته بعيدا عن المفاسد المتفشية فى مجتمع مكة .. يحب مكارم الأخلاق ، ويبتعد عن مواطن الخطأ وعندما اقامت قرش حلف الفضول لرد المظالم عن الناس بمقتضاه يكون الناس مع المظلوم حتى يسترد حقه كان محمد يشعر بالراحة ، والسعادة حتى قد ورد عنه قوله فيما بعد :

ـ شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت به فى الاسلام لأجبت .

.. وتمضى الأيام .. وروح محمد من كثرة التأمل قد أضاءها نور البصيرة ، أن يقترب من سن الأربعين ، وقد آن الأوان لتنزل

عليه أخطر رسالة يوكل بها نبى . انها رسالة الاسلام . لقد هياه الله لحمل هذه الرسالة العظمى .

تلك الرسالة النى سوف نغمر أنوارها العقول والقلوب ، والتى سوف تقلب مجتمع قريش رأسا على عقب ، ثم تستطيع أن تغير معالم الحياة لا فى الجزيرة العربية وحدها ، بل فى جميع أنحاء العالم .. حيث ستتغير قيم لا بد لها أن تتغير ، وتنتهى حضارات كان لابد لها أن تنتهى بعد أن تهرأت وشاخت وما عادت لديها القدرة على العيش فى ظل دعوة محمد عليه الصلاة والسلام ومافيها من قوة ونور ، وكان نزول الوحى على الرسول بداية لعصر جديد. وحياة جديدة ، وحضارة جديدة ، وانسان جديد .

الرســــالة

عندما بلغ محمد الأربعين من عمره كان مهيئا لحمــل رسالة السماء ، وقد كان من عادته أن يذهب شهرا كل عام الى غار حراء متأملا مفكرا ، وبينما هو فى الغــار ، وكان ذلك فى ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٦١٠ م .. نزل علبه جبريــل عليه السلام ، وكانت أول آيات القرآن الكريم .

((اقرا باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرا وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم)) .

ويعود محمد الى منزله خائفا واجفا ، يقص على خديجة ماحدث له فتقول له :

((ابشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده انى لأرجو ان تكون نبى هذه الأمة ، والله لن يخزيك الله أبدا ، انك لتصــل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر)) .

وتذهب الى ابن عمها ورقة بن نوفل الذى كان يحفظ الانجيــل لانه كان على النصرانية ، وتحدثه عما حدث لمحمد فيقول لها :

ــ ((قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ان كنت صدقتنى يا خديجة فان ما رآه محمد فى غار حراء ، انما كان الناموس الأكبر

الذى نزل على موسى وعيسى من قبل ، وان محمدا لهو نبى آخر الدهر ، والذى ورد اسمه فى التوراة والانجيل ، وانه سيقوم بابلاغ رسالة الله جل وعلا ، وسيلقى من قومه وعشيرته الايذاء والتكذيب ، وسيخرجونه ومن معه من ديارهم ، ثم يقاتل الذين كفروا ، ثم يأتيه الله النصر والفتح فاذهبى وقولى له فليثبت » .

تمضى أيام ، والوحى لا ينزل ، ويساور محمدا قلق عظيم وتقول له خديجة :

ـ لعل ربك قد قلاك .

فتزيد همومه وقلقه ، ولكن سرعان ما ينزل وحى السماء **« والضحى والليل اذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فاغنى ، فاما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث » .**

ورفع محمد بصره الى السماء :

« لك الحمد اللهم ولك الشكر على آلائك ونعمائك » غير انه عاد الى البيت يهزه الخوف ، وترجف أوصاله وهو يقول لزوجته : « دثرونى .. دثرونى » .

وجاء وحى الله :

« يا أيها المدثر ، قم فانذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » ولكن ينذر من ؟

سؤال راود محمدا عليه الصلاة والسلام ، وجاء وحى السماء

« وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ، وقوله « وقل انى أنا النذير المبين » .

وأسلمت خديجة ، وأسلم على بن أبى طالب ، وأسلم مولاه زيد ، ثم دعا صديقه أبا بكر فأسلم ، وتابع أبو بكر عثمان بن عفان

وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام . وبعد ذلك أسلم ابو عبيدة ابن الجراح وفاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد ، وأسماء وعائشة أولاد أبى بكر ، وغيرهم من المسلمين والمسلمات .

وكان على محمد عليه الصلاة والسلام أن يعلن الدعوة ، فخرج الى قريش على جبل الصفا ، والتفت حوله قبائل قريش ، قال لهم النبى :

ــ هل عرفتم عنى كذبا أو بهتانا ؟

ــ لم نعرف عنك كذبا أو بهتانا ؟

فقال محمد :

ــ لو قلت لكم ان خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ .

قالوا : نعم .

قال : اذن فاسمعوا جميعا ، فانى نذير لكم يا بنى عبد المطلب، يا بنى مخزوم ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى زهرة ، يا بنى تميم ، يا بنى أسد . لقد أمرنى الله ربى وربكم أن أنذركم ، فأنتم عشيرتى الاقربون ، وانى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا ، الا أن تشهدوا معى أن لا اله الا الله .

ظهر الوجوم على الوجوه ، وارتسمت عليها الدهشة . ان هذه الدعوة خطيرة للغاية ، انها الزلزال الذى يهز الجزيرة العربية والعالم من الاعماق ، انها دعوة تسفه عادات القوم وتقاليدهم ، انها ستغير المجتمع كله تغييرا جذريا ، وفطن ابو لهب لخطورة دعوة محمد عليه السلام ، وحاول الاستهانة بها قائلا له :

ــ الهذا دعوتنا .. ويلك .. !

ويتسع الجدل فى مجتمع مكة ، ويفطن سادة قريش الى خطورة هذه الدعوة التى تساوى بين السادة والعبيد . وان معايير كثيرة ستتغير ، وان ريحا جديدة نهب توقظ النائمين ، ان التاريخ يقرع أبواب عالم جديد ، عالم يحس فيه الفقراء بأن لهم كيانا ووجودا ، ويشعر فيه الضعيف أن حقه لا يذهب سدى .. ويشعر العبيد بأن ليلهم الطويل أوشك فجره على البزوغ ،، ففى تعاليم الدين الجديد ما يمكن من القضاء على عبوديتهم فالجميع أمام الله سواء ، لا فرق بين السيد والعبد الا العمل الصالح ، الا السلوك .. اهتز مجتمع قريش بعنف ، وابتدأ الاضطهاد ، وابتدأت الهجرة الى الحبشة وارسلت قريش فى أعقاب المهاجرين من يوغل صدر النجاشى ملك الحبشة عليهم ، ولعل ذلك الحوار الرائع الذى دار بين المؤمنين المهاجرين بدينهم وبين النجاشى ، يعطى صورة مبهرة عن الدين الجديد ، الذى كان يفضل المؤمن به الموت على الحياة ، كما خلق فيهم وعيا جديدا ، وفكرا عميقا ينمو على الدوام .

يجتمع النجاشى بالمسلمين المهاجرين ويسألهم :

ــ ما هو دينكم الذى فررتم به ، ولماذا لا تدخلوا دينى وكان النجاشى مسيحيا ..؟

ويقف جعفر بن أبى طالب . ان فى حديثه وضوحا وتوضيحا للانقلاب الهائل الذى أحدثه الاسلام فى عقول معتنقيه قال :

ــ يا أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الى الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونترك ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، نهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وبالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، لا نشرك به

شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، واحللنا ما احل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان ، فلما تهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك ، ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك » .

ــ قال النجاشى : هل تحفظ شيئا تقرأه على من الكتاب المنزل على نبيكم ؟

تلا جعفر سورة مريم من أولها الى هذه الآيات :

« فاشارت اليه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ، قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

فقال النجاشى : هذه الكلمات تصدر من نفس المنبع الذى صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح ، والله لن أسلمهم الى أيدى الاضطهاد .

وتمضى الأيام ورسول الله ماض فى دعوته ، غير مكترث بالاضطهاد والتنكيل بالمسلمين ، ولم يزد تعذيب مكة للمؤمنين بالاسلام الا استمساكا بهذا الدين الحنيف ، وتقف السيدة خديجة مع زوجها تنفق من أموالها بسخاء على الدعوة ، وزادت مكة من اضطهاد المسلمين ، ولما عجزوا عن اقناع أبى طالب بالوقوف عن مساعدة محمد قررت مكة مقاطعة المسلمين وبنى هاشم ، بحيث لا يتعاملون معهم ، ولا يتزوجون منهم .. كما أخرجوهم من مكة الى شعب فى الجبال .. وفرضوا عليهم حصارا اقتصاديا بالغ القسوة والعنف ، . وقد استمر هذا الحصار لمدة ثلاث سنوات بعد البعثة بحوالى سبع سنين ..

ومرضت خديجة . ، وعندما فك الحصار عن المسلمين .. بعدها بأيام ماتت خديجة .. لقد عاشت مع الرسول الكريم خمسة

وعشرين عاما منهم عشرة بعد البعثة ، وانجبت للرسول القاسم وعبد الله وقد ماتا فى طفولتهما .. كما أنجبت له زينب ورقيـة وأم كلثوم وفاطمة ... وكل هؤلاء توفين فى حياة الرسول ماعدا فاطمة التى توفيت بعده بستة أشهر .

وحزن الرسول عليه الصلاة والسلام لوفاتها حزنا شديدا لقد كانت رفيقة عمره .. شاركته أفراح الحياة وأحـزانها ، وتحملت معه ما تحمل هو من أهوال قريش وهو يؤدى رسالة الله .. وها هو اليوم قد وقف وحده فى الميدان .. بعد أن ماتت زوجته خديجة ..

ومات ايضا عمه أبو طالب الذى رعاه صغيرا وحماه عندما أخذ ينشر راية التوحيد .. لقد بلغ الحزن بمحمد عليه الصلاة والسلام مداه ، وسمى هذا العام عام الحزن .

محمد صلى الله عليه وسلم
فى الطائف

ماتت خديجة ..

ومات عمه ابو طالب ..

وشعر الرسول بالحزن العميق وزاد اضطهاد مكة له .. وفكر الرسول .. وقرر أن يذهب الى الطائف لعل الناس هناك يؤمنون به فتزداد دعوته بهم قوة .. انه يذهب الى الطائف مع مولاه زيد ابن حارثة .. كان ذلك فى شهر شوال سنة عشر من البعثة .. لقد تمادت قريش فى عداوتها للرسول الكريم .. فأخذ سفهاؤها يلقون عليه التراب والروث وهو صابر لأمر ربه .. ان ابنتــه فاطمة ترى ما يفعله هؤلاء السفهاء بسيد البشر ، فتتقدم اليه حانية تزيل عن رداء والدها التراب والأوساخ .. ولكنه يقول لها بكل الايمان والحب ..

((لا تحزنى يا بنية فان الله مانع اباك)) .

ويتوجه الرسول الى الطائف لعله يجد هناك من ينصرونه بعد موت عمه وزيادة اضطهاد قريش له .

لقد قال عليه الصلاة والسلام والحزن يعتصر نفسه .

ــ ((ما نالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات ابو طالب)) .

.. ويسافر الرسول الى الطائف ، ويبدأ بمقابلة ثلاثة من سادتها ، كانوا ثلاثة من الأشقاء أبناء عمرو بن عمير . لعل باسلامهم يقتدى بهم قومهم من بنى ثقيف ، ولكنهم نظروا اليه بسخرية واستهزاء قائلين له :

ـ الم يجد الله غيرك يرسله ؟

ولم يكتفوا بذلك بل ارسلوا سفهاءهم ليرموا الرسول بالحجارة ولم يتركوه الا عندما اختفى خلف حائط بستان .. أخذ يجفف دماءه ، وامتلأت عيناه بالدموع ، وتوجه بكل كيانه نحو السماء .

اللهم اليك اشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس .

يا ارحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى الى من تكلنى ، الى بعيد يتجهمنى .. ؟ أم الى عدو ملكته أمرى ؟

ان لم يكن بك غضب على فلا ابالى .

ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى اشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك .

لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك)) .

.. ويرى صاحب البستان ما حل بمحمد فيمس العطف شغاف قلبه فيأمر خادمه (عداس) أن يذهب بطبق من العنب للرسول ، ويتقدم عداس الى محمد بطبق العنب ، ويتناوله محمد قائلا : باسم الله ، ويدهش عداس ويسأل الرسول :

ـ هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد .

ويسأله الرسول عن دينه وعن البلد القادم منه :

ويقول الغلام : انا نصرانى من نينوى .

ويرد الرسول : من بلد الرجل الصالح يونس بن متى .

ويقول الغلام : وما الذى عرفك بيونس بن متى ؟

ويجيب الرسول : انه أخى ، كان نبيا ، وأنا نبى مثله .

وينحنى عداس يقبل رأس الرسول ويديه وقدميه ، ويعلن اسلامه ..

ويعود الرسول العظيم الى مكة وقد عزم العزم أن يقابل القبائل عارضا الاسلام عليهم فى موسم الحج مثل ما فعل فى الطائف ، ولكن كيف يدخل قريشا وهى تتربص به ، لقد ارسل الرسول الى الأخنس بن شريق ليدخل فى جواره الى مكة ولم يكن قد أسلم بعد فرد عليه بأنه حليف والحليف لا يجير ، فبعث الرسول الى ابن عدى وقد مات هذا الرجل على دين قومه ليدخل مكة بجواره فوافق الرجل وتسلح بن عدى هو وأولاده ، وذهب الى البيت الحرام يعلن عدم تعرض أحد لمحمد ودخل النبى عليه الصلاة والسلام الى مكة وذهب الى البيت الحرام وطاف به وصلى ثم عاد الى منزله وحوله ابن عدى وأولاده .

الهجرة ومسار جديد للدعوة

ظل رسول الله عليه الصلاة والسلام يدعو الى الاسلام فى مكة ثلاثة عشر عاما .. أسلم خلالها عدد كبير من النـــاس ، وفى نفس الوقت ظل عدد كبير من أهل مكة يزدادون صلفا وكفرا وجحودا ، ولاقى النبى الكريم ما لاقى من بطش هؤلاء السفهاء وكان لابد للدعوة أن تأخذ طريقا جديدا ، طريقا حاسما .. يقضى على رؤوس الكفر والضلال ، وينتشر نور الاسلام فى كل مكان . وأوحى الله الى رسوله بالهجرة الى يثرب ، وكان قد التقى ببعض أهلها فى موسم الحج وآمنوا به ، وتأهب الرسول لهذه الرحلة الى يثرب مع الصديق ، وعلمت قريش أن الرسول يزمع الهجرة من قريش فدبروا مكيدة قتل النبى ، ونام على بن أبى طالب فى فراشه .. أما الذين حاصروا بيته فقد غشيهم النعاس ، وخرج الرسول عليه الصلاة والسلام وسطهم دون أن يدروا به ، ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة ــ تلك التى شهدت مولده ، وطفولته وشـــبابه ، وعاش فيهـــا ، وله فيها ذكريات وذكريات .. لطالما شاهدت أماكنها للرسول مواقف ، ولكن ما الحيلة ؟. لا راد لمشيئة الله .. انه ينظر اليها ويقول تلك الكلمات الرائعة البليغة !

« والله انك لأحب أرض الله الى ، وانك لأحب أرض الله الى الله . ولولا أن أهلك ــ أخرجونى ــ ما خرجت منك » .

قمة الحب البليغ للوطن .

لقد استيقظ الذين يريدون قتله فوجدوا عجبا .. لقد غشيهم النعاس جميعا ، ولم يشاهدوا أشرف مخلوق يخرج من بينهم ولا يشعرون به ، وينزل الوحى على رسول الله .

ــ ((وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)) .

ويجن جنون قريش ، وتبعث فى أثره من يقتفى أثره ، ويدخل الرسول فى غار حراء مع الصديق ، ويعشش العنكبوت على باب الغار ، وتأتى حمامة ، وتحط على باب الغار ، ويأتى أهل مكة بالقرب من الغار ، **ويقول أبو بكر لصاحبه ..**

ــ لو نظر أحدهم تحته لرآنا ويرد الرسول عليه الصلاة والسلام

ــ ما بالك باثنين الله ثالثهما .

ويعبر القرآن الكريم عن هذه الحادثة بأسلوبه المعجز .

((الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا)) .

وترجع قريش تجر أذيال الخيبة والندم ، ويصل الرسول الكريم الى المدينة ويؤاخى بين الأنصار والمهاجرين ، وتأخذ الدعوة مسارا جديدا ، آن لها أن تنطلق ، فطوال تلك الفترة التى قضاها الرسول فى مكة كان يدعو الى الاسلام بالحسنى . بالموعظة الحسنة ، وعذب المسلمون ، واضطهدوا ، ولم يرفعوا السيوف فى وجه جلاديهم ، وآن الوقت لتأخذ الدعوة مجالا آخر .. فالاسلام ينتشر بين القبائل لأنه دين الفطرة . دين بسيط لا تعقيد فيه . مبادىء سامية لا يختلف حولها أحد . الاختلاف ليس على ما فى الاسلام من مبادىء وقيم ومثل عليا ، ولكن الخلاف لأن السادة وجدوا خطرا فى الدين الجديد ، ورأى فيه بعض المتزمتين أنه يسفه عبادة الأوثان الموروثة عن الأجداد ، **ولكن دين التوحيد لن يقف فى سبيل انتشاره اليوم شىء ــ لن يقف مهيض الجناح يتلقى ضربات الأعداء .**

بل سوف يواجه الظالمين .. سوف يقابل القوة بالقوة .. اذا كان هذا هو المنطق الذى تعرفه قريش ولا تعرف غيره ، ومن هنا فقد شرع الجهاد فى سبيل الله .. لا عدوان على أحد ، ولكن دفاعا عن الدين أو دفاعا عنه ضد متزمتى الجاهلية :

« اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها أسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز . الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

ان شروق الاسلام ابتدأ ينتشر ، وهاجت قريش وماجت وهى تعلم أن الرسول الكريم فى المدينة قد نظم أمورها ، وأن ثمرات كفاحه الطويل ابتدأت تظهر للعيان ، وأن خطره قد ازداد . لم يعد بقدرتهم فرصة أية وصاية عليه ، ونور الاسلام الذى أخذ يشق طريقه الى القلوب . **لم يعتنقه الناس رهبة من السيف ، فهو لم يرفع سيفا يرغم أى انسان على اعتناق مبادئه ، لسبب بسيط جدا أنه لا اكراه فى الدين .. هكذا يأمرهم القرآن بذلك .**

« لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ان الاسلام وقد انتقل الى المدينة . سوف تتسع دائرة نشاطه ، ولكن هل يمكن لهذا الدين الجديد وهو ينتشر بهذه السرعة المذهلة . فيزيل الفوارق بين الناس ، ويسوى بين السادة والعبيد ويلغى الحواجز الطبيعية بين الناس ، هل يمكن له ان يسير على هذا المنوال دون أن يكيد له المنافقون ، والذين فى قلوبهم مرض ؟ المنطق والواقع يقول لا .

فالمنافقون فى كل العصور يقفون بالمرصاد لكل الأعمال العظيمة .. اذن ستكون هناك فتن ومؤامرات ودسائس .. وستندلع حروب مريرة قاسية . بين الحق والباطل . بين اصحاب النور ، وانصار الظلام ، واذن فلابد أن يشرع القتال .

« قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وان يعودوا فقد مضت سنة الأولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير . وان تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » .

ولكن القرآن وهو يشرع الجهاد يضع قاعدة ذهبية .. هذه القاعدة هى أن يحارب المسلمون ما دام لابد من الحرب ، ولكن **الحرب ليس بهدف الحرب ، ليس هدفه الدماء والضحايا والأشلاء . انه دائما يحب اغصان الزيتون ، انه دائما يبشر بالسلام .**

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » .

واذا كان لابد من القتال . فان القتال شرع حتى تعلو راية التوحيد ، وراية التوحيد لن تعلو ببساطة ، فهناك دائما الحاقدون والمنافقون ، والكارهون النور .

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

اذن . شرع الجهاد لدفاع المسلمين عن دينهم ، وحقوقهم ، وليس لارغام أحد على الدخول فيه لأن القرآن يقر صراحة :

● « انك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو اعلم بالمهتدين » ..

● « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون » .

لقد فر الرسول بدينه الى مكة اذن . تمهيدا لنشر نوره فى كل ارجاء العالم ، والرسول يعلم انه محاط بالأعداء .. وأن قريشا تتربص به .. فكان على الرسول أن يبعث السرايا ليعرف أخبار قريش ، وقام عليه الصلاة والسلام ليعترض قافلة لقريش كانت قادمة من الشام ، ولم يكن هذا الاعتراض عدوانا على قريش ، ولكنه يريد أن يأخذ بعض حقه وحق المهاجرين الذين هاجروا من مكة بلا مال ، ولا عتاد . لقد سلبهم مجتمع قريش كل شيء ، ونجا أبو سفيان بالقافلة .. ولكن صلف قريش وغرورها سول لها ضرورة الانتقام من المسلمين ، وكانت معارك الاسلام الكبرى التى غيرت مجرى الحياة فى مجتمع الجزيرة العربية كلها ، ثم المجتمع العالمى كله .!

معارك الإسلام الكبرى

لا شك أن هناك معارك فاصلة فى التاريخ .

هذه المعارك ليست مجرد معارك عسكرية بين دولة ودولة ، أو فريق من النــاس ضــد فريق آخر — يظهر فيهــا المنتصر ، ويقبع مهيض الجناح بعدها المهزوم ، ثم تنسى مع الزمن ، ولكن هذه المعارك كانت حدا فاصلا بين عهد وعهد — بين صورة وصورة — على أثرها تغيرت خريطة الدنيا ، وبرزت ملامح حياة جديدة تركت بصماتها على دنيا الناس . لا فى العصر الذى وقعت فيه فقط ، بل فى عصور تالية من التاريخ .

ولقد خاض الرسول الكريم معارك كثيرة — قاد سبعة وعشرين زحفا ، واشترك فى معارك بنفسه ، وهى تسع معارك (بدر — احد — المريسيع — الخندق ، قريظة ، خيبر — فتح مكة — حنين — الطائف) .

كما انه ارسل سبعا واربعين سرية) .. واذا كان محمد عليه الصــلاة والسلام يقود هــذه المعارك ، فقد اتسم بالجــراة ، والشجاعة النادرة ، ومعرفة جو المعركة ، وما يحتم خوض هذه المعارك من سرية .. وكان هو قدوة حسنة لجنوده ، أو على حد تعبير ... على ابن أبى طالب :

« كنا اذا حمى الباس التقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب منه الى العدو » .

وطبعا لا يمكننا فى هذا الخبر الصغير أن نستعرض كل معارك الرسول لأنها نتسع لمجلدات ، ولكننا سنقف عند المعارك الفاصلة التى غيرت تاريخ الاسلام ، وأول هذه المواقع كانت معركة بدر الخـــالدة .

معـــركة بــدر :

لقد كانت معركة بدر أول معركة فى التاريخ الاسلامى . ولهذه المعركة أهميـــة كبرى ــ لأنه لو قدر لهذه المعــركة أن يخسرها المسلمون لانتهى الاسلام الى الأبد ، وانتهت الدعوة فى نفس الوقت !

نحن الآن فى مدينة رسول الله ــ المدينة المنورة ــ آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار . بعد أن اضطر للهجرة من مكة الى المدينة ــ دفاعا عن نفســه ضد أذى مشركى مكة ، وما كان ينبغى أن يظل الاسلام فى حالة دفاع دائمة عن النفس .. مجرد رد العدوان . كان لابد من اتباع استراتيجية جديدة ــ ليس الهدف منها العدوان ولكن اقامة دولة الاسلام ليبدأ الدين الجديد انتشاره ، وهذا كان يتطلب ايجاد قوة جديدة يحسب حسابها لأنه قد آن الأوان أن تأخذ الدعوة شكلا حاسما . بتصفية خصوم الاسلام ، والرد على عدوان الكائدين له ، فقد اذن الله لهم بالجهاد .. ومن هنا فقد فكر الرسول أن يشعر قريشا بأن تلزم حدودها وانه قد آنت ســاعة الانتقام ، فكان أن أمر بأن يتصدى المسلمون لقافلة لقريش كانت قادمة من الشام يقودها أبو سفيان ، وعلم أبو سفيان بذلك وتمكن من الهرب ، ولكن قريشا تأبى الا أن تهاجم محمدا فى المدينة ، وتلقنه درسا يعلم بعده قوة قريش ! انها تبعث بجيش جرار قوامه ألف فارس ومعها نساؤها وخيلاؤها ، ولم يكن المسلمون الذين أخذوا موقعهم عند بئر بدر سوى ثلثمائة وبضعة عشر رجلا .. قوتان غير متكافئتين . قوة هائلة أمام قلة من المسلمين ليس لهـــم من عتاد وسلاح يتناسب مع سلاح العدو ، **مما جعل النبى عليه الصـــلاة والسلام يتجه ببصره الى السماء يطلب العون .**

«اللهم انهم حفاة فاحملهم ، اللهم انهم عراة فاكسهم ، اللهم انهم جياع فاشبعهم» .

وسال الرسول أصحابه الراى . ان عدوهم يملك ما لا يملكون . ويرد المقداد بن عمرو :

« يا رسول الله ، امض لما أمرك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون . ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا معكما مقاتلون ، ما دامت منا عين تطرف ، فوالله الذى بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد (بلد فى الحبشة) لسرنا معك » .

ويقول سعد بن معاذ الأنصارى :

« يا رسول الله قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع الطاعة ، ولعلك يا رسول الله تخشى أن تكون الأنصار ترى عليهم الا ينصروك فى ديارهم ، وانى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم ، فامض حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وسالم من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت كان أحب الينا أخذه مما تركت ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هـذا البحر فخضته لخضناه معك ، وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن نلقى عدونا غدا ، وانا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عيناك . فسر على بركة الله » .

هنا يقول الرسول الكريم :

« سيروا وابشروا بأن الله قد وعدنى احدى الطائفتين العير او النفير . فوالله لكأنى انظر الى مصارع القوم» .

وفى أول المعركة اقترح سعد بن معاذ أن يبنى للنبى عريشا . يقود من خلاله المعركة ووافق الرسول . وابتدأت المعركة الرهيبة .

خرج من صفوف المشركين ثلاثة من محترفى القتال وهم عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة طالبين المبارزة فخرج لهم على بن أبى طالب ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ، وقتل المشركون الثلاثة ، وارتفعت صيحات التكبير فى **صفوف جيش المسلمين .**

ودارت معركة رهيبة . وفى أثنائها توجه النبى الى السماء .

((اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم ان تهتلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض)) .

ويقول الرسول أيضا :

((والذى نفس محمد بيده (بيد الله) لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر الا ادخله الله الجنة)) .

وتحتدم المعركة ، ويتساقط قتلى المشركين . وتدور الدائرة عليهم ، ويقتل أبو جهل . ويفر المشركون هاربين ويوصى الرسول الكريم بمعاملة الأسرى معاملة كريمة !

وكانت هذه المعركة بداية لانتصارات اسلامية متتالية .. بعدها استقر الاسلام وانتشر ، وكان كل يوم يزحف نحو مساحات جديدة ، ويغزو قلوبا جديدة . الى أن دخلت الجزيرة العربية كلها فى الاسلام .

غزوة الخندق :

هذه الغزوة من أهم الغزوات التى تعرض لها المسلمون . كان موقفهم فيها موقف الدفاع . بينما كان الهجوم مكونا من جيش ضخم

قوامه عشرة آلاف مقاتل من قريش وقبائل بنى النضير وغطفان وأشجع وأسد وسليم ، وقد لعب اليهود دورا كبيرا فى تأليب القبائل على الرسول عليه الصلاة والسلام فى محاولة للقضاء على هــذه الدعوة التى ينادى بها الرسول الكريم .

زحفت كل هذه القبائل بسلاحها الرهيب ، وعتادها الضــخم بقيادة أبى سفيان ومعه خالد بن الوليد على رأس الفرسان . ان خالدا يأمل أن يهزم المسلمين ويزحف هذا الجيش الضخم تجاه مدينة رسول الله . ويعلم الرسول بهذا الزحف ويعد له العدة بان يحفر خندقا حول المدينة بعد أن اقترح ذلك سلمان الفارسى . وحاول بعض ضعاف النفوس التسلل هاربين الى بيوتهم . وهنا نزل قوله تعــالى :

((انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه . ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فاذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ان الله غفور رحيم . لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا . قد يعلم الله الذين يتسللون منــكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمــره أن تصيبهم فتنــة أو يصيبهم عذاب أليم)) .

ويتجه هذا الجيش لملاقاة المسلمين ويفاجأ بالخندق ، ولم يكن العرب قد عرفوا هذه الوسيلة من قبل فى الدفاع . . حاولوا التسلل ولكن المسلمين ردوهم على أعقابهم ، وكانت من عادة العرب فى القتال أن يبدأوا الحرب بالمبارزة . وهنا انبرى عمرو بن ود وكان فارسا شجاعا يتحدى أحدا من المسلمين لمبارزته ، وهنا وقف على ابن أبى طالب يتحداه والرسول يمنعه . وللمرة الثالثة يصيح عمرو ابن ود متحديا المسلمين .

لقد بححت من النداء بجمعكم هل من مقاتل .

ووقفت اذ جبن المشجع وقفة الرجل المناجز .

وكذلك انى لم أزل متسرعا قبل الهزائر .

ان الشجاعة فى الفتى والجود من خير الغرائز .

ورد عليه على بن أبى طالب :

لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نية وبصيرة والصدق منجى كل فائز

انى لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز

واتجه نبينا عليه الصلاة والسلام ببصره الى السماء وقال :

« الهى اخذت عبيدة منى يوم بدر ، وحمزة يوم أحد ، وهذا على اخى وابن عمى فلا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين . اللهم اعنه عليه » .

وتقدم على من خصمه العنيد فقال له عمرو

— لم يا بن أخى . فوالله ما أحب أن اقتلك

ورد على :

— ولكنى والله أحب ان اقتلك

ودارت معركة رهيبة استطاع على أن يقتل عمرو بن ود وكبر المسلمون . وعند عودة على سأله الرسول :

— كيف وجدت نفسك معه يا على ؟

— قال على وجدته لو كان أهل المدينة كلهم فى جانب وأنا فى جانب لقدرت عليهم .

ودارت معركة رهيبة فى اليوم التالى عندما تسلل فريق من المشركين مقتحمين الخندق . ظل القتال دائرا من الصباح حتى العشاء ، واستمر القتال فى الليل ، وشن المسلمون هجوما مضادا على هذه الفرقة التى تسللت بقيادة خالد بن الوليد اضطر بعدها الى العودة حيث جيوش المشركين .

واشتد حصار المشركين للمدينة . ويئس المشركون ، وذهب كيد اليهود .. لقد هبت ريح عاصفة عاتية . اقتلعت خيام العدو ففر مذعورا .

وكان لابد للنبى عليه الصلاة والسلام أن يسوى حسابه مع يهود المدينة الذين تآمروا عليه ، وخضع اليهود لشروط النبى ، وارسل ابو سفيان رسالة للنبى يقول فيها .

ـــ باسمك اللهم ، فانى أحلف باللات والعزى ، واستاف ونائل وهبل ، لقد سرت اليك فى جمع وانا اريد أن لا أعود اليك ابدا حتى أستأصلكم فرأيتك قد كرهت لقاءنا واعتصمت بمكيدة ما كانت العرب تعرفها ، وانما كانت تعرف رماحها وسيوفها ، وما فعلت هذا الا فرارا من سيوفنا ولقائنا ولك منى يوم كيوم أحد .

ويرد عليه الرسول عليه الصلاة والسلام :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى صخر بن حرب . أما بعد . فقد أتانى كتابك وقديما غرك بالله الغرور . أما ذكرت أنك سرت الينا ولا تريد ان تعود حتى تستأصلنا فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة ، وليأتين عليك يوم اكسر فيه اللات والعزى وأسافا ونائلة وهبل حتى أذكرك ذلك يا سفيه بنى غالب » .

ويعبر القرآن الكريم عن هذه الأحداث بقوله المعجز :

« يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا »

اذ جاءوكم من فوقكم ومن اسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنـــالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا . واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن ــ فريق منهـــم النبى يقولون أن بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا » الى آخر الآيات الكريمـــة .

لقد كانت هذه المعركة من أخطر المعارك الاسلامية ، وكانت بمثابة بشائر النصر .. فقد انتشر الاسلام بعدها .. ودخل الرسول العظيم مكة .. واتخذت الدعوة مسارها الصاعد ، فأزيلت الأصنام بعـــد أن حطمت من البيت الحرام ، ودخـــل الناس فى دين الله أفواجـــا .

نســـــاء النـــــبىّ

(صلى الله عليـــه وسّـــلم)

كان محمد عليه الصلاة والسلام مثالا للانسان الكامل . الانسان المتواضع . الضعيف . الذى يخفض جناحه للمؤمنين — كان رحيما بالناس . عطوفا عليهم .. فهو القائل :

- **الراحمون يرحمهم الرحمن .**
- **من لا يرحم لا يرحم .**
- **من يسر على معسر فى الدنيـــا ، يسر الله عليـــه فى الدنيا والآخــرة .**

« ومن يقرأ مامر بحياته عليه الصلاة والسلام من أحداث . يرى الانسان المتواضع الى أقصى درجات التواضـع . نرى ذلك فى هذه الحكاية المشهورة عندما يدخل عليه أحد الناس ، وقد تملكه الخوف من قوة شخصية الرسول . فاذا بالرسول يربت على كتفه قائلا كلمته الخالدة .

« هون عليك . فان امى كانت تاكل القديد بمكة » .

ومن يقرأ قصة الاعرابى الذى جاء الى محمد عليه الصـــلاة والسلام وقلبه ممتلىء غيظا وحقدا عليه لأنه يسب آلهة قريش ،

ولكنه يذوب خجلا أمام ابتسامة النبى وحنوه العظيم .. فاذا به وهو القادم للانتقام من الرسول ينحنى ليقبل يدى الرسول وقدميه ويقول له :

« يا محمد . والله لقد سعيت اليك وما على وجه الأرض ابغض الى منك ، وانى لذاهب الآن عنك ، وما على وجـــه الأرض أحب الى منك » .

ويروى لنا التاريخ ايضا كيف استقبل الرسول عليه الصـــلاة والسلام وهو فى المدينة سيدة عجـــوزا فيفرش لها بردته ويقابلها بترحاب شديد ، وعندما تسأله عائشة عن حفاوته بها يقول لها :

« انها كانت تزورنا أيام خديجة » .

حياته عليه الصلاة والسلام كلها مودة وحب واخاء وايثار .. لم يتنكر لبشريته ، وما كان يغضب الا لله .. أما غير ذلك فهو الانسان الذى يمشى فى الأسواق ، ويعيش عيشة الناس الماديين ، فهو الذى كان يدعو ربه .

ــ اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا

لم يطلب الثراء ، ولم يعش عيشة سلطان أو حاكم ، انما هو واحد من الناس .

وهذا هو سر عظمة محمد عليه الصلاة والسلام . تلك العظمة التى فاقت كل مناسيب العظمة البشرية .. انه كما يقول القـــرآن الـــكريم .

« انما انا بشر مثلكم »

ومن هنا فقد تزوج ، وأخذ من الحياة فى حدود شرعت له وحده عليه الصلاة والسلام .. كان زواجه من أمهات المؤمنين بوحى

من الله تعالى ، فقد كان زواجه عليه الصلاة والسلام من نسائه لأسباب عديدة .. ليس فيها بالطبع شغفه بالنساء كما قال بعض المستشرقين فى افتراءاتهم عليه .. فقد كان قدوة للمسلمين .

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

.. هناك ظروف دعت الرسول أن يتزوج أكثر من أربعة بينما أبيح لباقى المسلمين ألا يعدو الأربعة لقوله تعالى :

« فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » .

.. لقد كان زواج النبى ، وهو الذى لم يتزوج فى عنفوان شبابه الا خديجة ، وظل معها ، لم يتزوج عليها طوال حياتها .. الى أن ذهبت الى رحاب الله .. قضت معه خمسا وعشرين عاما ، منها خمسة عشر قبل النبوة وعشر بعدها ، أى أن الرسول عندما تزوج زوجاته كان قد تجاوز الخمسين من عمره ، وهى السن التى لا يكون الزواج فيها بسبب الشهوة ..

لقد كان زواج الرسول كما قلنا بوحى من الله .

« ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له » والله سبحانه وتعالى يقول أيضا :

« يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك ، وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة أن وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين » .

وبعد أن فتح الرسول مكة ، وانتشر دين الله ، ودخل الناس فيه أفواجا . هنا استنفدت حكمة تعدد الأزواج للنبى أغراضها .. نزل قوله تعالى :

((لايحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا)) .

كانت خديجة هى أول زوجاته عليه الصلاة والسلام .. وكانت أول من آمن به عليه الصلاة والسلام ، وقد تزوجته وكانت فى الأربعين من عمرها ، وكان هو فى الخامسة والعشرين من عمره عندما وثقت فى أمانته وخلقه وشخصيته .. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يذكرها دائما ، ولا ينس تلك العشرة الطويلة معها، وكفاحها بجانبه فى أشد الظروف التى مر بها عليه الصلاة والسلام وهو يدعو الناس الى دين الله .. حتى أن عائشة رضى الله عنها كانت تتملكها الغيرة عندما تذكر خديجة .. لقد قالت للرسول مرة :

ـ ما تذكر من عجوز هلكت فى الهالكين فابدلك الله خيرا منها .

ما كادت عائشة تقول هذا حتى ظهر الغضب على وجه الرسول الكريم وقال لعائشة :

ـ والله ما أبدلنى الله خيرا منها ، آمنت بى حين كفر الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها اذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء)) .

● **الزوجة الثانية :** سودة بنت زمعة .. كانت زوجة السكران ابن عمرو أحد أصحاب رسول الله الذى هاجر الى الحبشة وعندما مات وتركها وحيدة ، وكانت سيدة عجوزا ليس فيها جمال يغرى الرجل ، لقد تزوجها الرسول اكراما لزوجها الذى هاجر مع الرعيل الأول من المهاجرين الى الحبشة وكانت زوجته خديجة قد توفيت فى العام السابع بعد البعثة ورأى النبى فى زواجه من سودة بنت زمعة

أيضا من ترعى بنتيه « أم كلثوم وفاطمة » .. وقد ظلت معه عليه الصلاة والسلام فى مكة ، وهاجرت الى المدينة معه .

وقد توفيت رضى الله عنها فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

● **الزوجة الثالثة** : عائشة بنت أبى بكر ، وقد خطبها الرسول وكانت فى العاشرة من عمرها ، ولم يدخل بها الا فى الثانية عشرة من عمرها ، وقد تزوجها ليوطد الصداقة بينه وبين أبى بكر الصديق ، فقد كان الرسول يحب الصديق حبا كبيرا .. ويكفى أن تعرف أن أبا بكر الصديق أنفق خمسة وعشرين ألف دينار ، وحرر من هذا المبلغ كثيرا من العبيد ، وعندما هاجر الى المدينة كان يحمل معه خمسة آلاف دينار .

لقد كانت عائشة من أحب نساء النبى الى قلبه ، ومع ذلك فقد تعرضت للاشاعات الآثمة ، أو حادثة الافك كما يرويها لنا التاريخ، وكان الذى روج لهذه الحادثة رأس المنافقين فى المدينة « عبد الله ابن أبى بن سلول » .. والذى أخذ ينشر هذه الاشاعة الكاذبة حتى وصلت الى أذن الرسول والى أذن ابى بكر الصديق . .وملخص هذه الحادثة أن الرسول اصطحب معه فى غزوة « بنى المصطلق » عائشة ، وبعد انتصار المسلمين بها حطوا رجالهم بالصحراء للراحة ، وذهبت عائشة لقضاء حاجتها بعيدا فى الصحراء ، وعندما عادت الى مكانها وجدت أن عقدها ليس فى صدرها ، فعادت الى المكان لتبحث عنه ، وكان الجيش قد بدأ بالعودة ، وحمل الجنود هودجها ولم يفطنوا أنها لم تكن به ، وعادت عائشة مذعورة عندما لم تجد أحداً من جنود المسلمين ، فآثرت أن تظل مكانها يقينا منها بأنهم سوف يعودون اليها عندما لا يجدونها فى هودجها ، وكان متخلفا عن جيش المسلمين واحد منهم يسمى « صفوان بن المعطل » على أمل أن يجد شيئا قد تركه الجنود .. فلما رأى عائشة عرفها، وأركبها بعيره ، وأخذ هو بزمام البعير حتى وصلت الى المدينة ، والقصة عادية ولكن المنافق «عبد الله ابن ابى بن سلول» أخذ يشيع أنها كانت على علاقة بهذا الرجل ، انتشر الخبر بين الناس . استعاذ منه المسلمون ، وفرح المنافقون .. الى أن وصل الى آذان النبى عليه الصلاة والسلام ، وكذلك ابو بكر .

وتحكى عائشة أحداث هذه القصة فتقول :

« قمت حين أذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت الى رحلى : فلمست صدرى فاذا عقد لى قد انقطع ، فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاءه ، واقبل الرهط الذين كانوا يرحلوننى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه ، وهم يحسبون انى عليه ، ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب ، فيممت منزلى فغلبتنى عينى فنمت ، وكان صفوان ابن المعطل السلمى من وراء الجيش فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد انسان نائم فعرفنى حين رآنى ، وكان رآنى قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخمرت وجهى بجلبابى ، ووالله ما تكلمنا بكلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطىء على يدها فقمت اليها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة » .

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يعلم أن زوجته بريئة مما اتهمها به هذا المنافق ، حتى أنه قام فخطب الناس فقال :

« يا أيها الناس ، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ، ويقولون عليهم غير الحق . والله ما علمت منهم الا خيرا ، ويقولون ذلك لرجل ما علمت منه الا خيرا ، وما يدخل بيتا من بيوتى الا وهو معى ؟

وكادت تحدث فتنة .

والرسول ينتظر .. وطال الانتظار ..

وسأل الرسول أصحابه .. قال له أسامة بن زيد ان ما قيل عنها افتراءات ، بينما قال على بن أبى طالب للرسول :

ـــ يا رسول الله . النساء كثيرات وانك لقادر على أن تستخلف وسل الجارية فانها ستصدقك .

ويسال الرسول جاريتها بريرة فتنفى عنها أى سوء .. كانت عائشة فى بيت أبيها الصديق . يعتصرها الألم والحزن والمرض ، ويذهب اليها الرسول قائلا :

« يا عائشة انه قد كان ما قد بلغك من قول الناس فاتقى الله ، وان كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس فتوبى الى الله ، فان الله يقبل التوبة من عباده » .

فردت عليه عائشة :

ـــ والله لا اتوب الى الله مما ذكرت ابدا ، فلئن قلت لكم انى بريئة لا تصدقونى ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم انى منه بريئة لتصدقن . فوالله لا أجد لى ولكم الا قول أبى يوسف عليه السلام .. « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

ونزل الوحى يبرىء عائشة من فوق سبع سموات .. وخرج الرسول الى المسجد يتلو على الناس قوله تعالى :

« ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين » الى أن قال « ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ، ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وعادت عائشة الى بيت النبى ، وظلت معززة مكرمة ، الى أن لحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى فى بيتها ، حيث دفن وكان عمره عليه الصلاة والسلام ٦٣ سنة وكان عمرها ٢٣ سنة .

***

الزوجة الرابعة كانت حفصة بنت عمــر بن الخطاب ، وكان الغرض من هذا الزواج أن يوطد علاقته عليه الصلاة السلام بعمر ابن الخطاب مثل أبى بكر الصديق .. وكانت حفصة متزوجة من الصحابى خنيس بن حذافة السهمى .. وكان من المهاجرين الى الحبشة واستشهد فى موقعة بدر .. وعندما استشهد زوجها كانت هى فى الثانية عشر من عمرها ، وكان عمر بن الخطاب يريد أن يزوجها أبا بكر الصديق ، أو عثمان بن عفان ، ولكنهما تمهلاه ، فذهب يشكو للرسول الذى ابتسم وقال له « تتزوج حفصة ممن هو خير من عثمان ويتزوج عثمان ممن هى خير من حفصة » .

وكانت حفصة تجيد القراءة والكتابة .. ذكية فصيحة وكانت حفصة أقرب النساء الى قلب عائشة .. وقد توفيت حفصة وهى فى الستين من عمرها فى خلافة معاوية بن أبى سفيان فى سنة ٤٥ هـ ، ودفنت فى البقيع فى مقبرة أمهات المؤمنين .

● **الزوجة الخامسة : زينب بنت خزيمة « ام المساكين »** وكانت كبيرة فى السن ، وكانت زوجة لابن عم الرسول عبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب .. وقد كان زوجها قد استشهد فى معركة بدر ، وكان الرسول يرغب أن يكرم زوجة ابن عمه ، غير أنها توفيت بعد ثمانية أشهر من زواجها بالرسول عليه الصلاة والسلام ..

● **الزوجة السادسة كانت هنــد ام سلمة** ، وكانت من أولى المهاجرات الى الحبشة ، وكانت متزوجة من ابن عمها عبد الله ابن عبــد الأســد المخزومى ، وكان ابن عمــة رســول الله « برة بنت عبد المطلب بن هاشم » وقد كان زوجها قد استشهد

على اثر جرح أصابه فى معركة أحد .. وقد كانت مكرمة عنـــد الرسول وكانت آخر من ماتت من نساء الرسول .. لقد ماتت فى سنة ٦٣ هـ فى عهد يزيد بن معاوية ، ودفنت فى البقيع .

● **الزوجة السابعة كانت زينب بنت جحش** .. وهى ابنة عمة الرسول ، وكان قد زوجها عليه الصلاة والسلام لمولاه زيد بن حارثة ، وقد تزوجها الرسول بعد طلاقها من زوجها بوحى من الله سبحانه وتعالى « **لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم** » . **وكان الرسول يحبها حتى أن عائشة كانت تقول :**

« كانت زينب تساميني من بين أزواج النبى فى المنزلة عنـــد رسول الله » .

وكانت زينب تفاخر نساء النبى بأنها قد تزوجت بأمر الله .. فكانت تقول لهن :

« أنا أكرمكن وليا ، وأكرمكن سفيرا . زوجكن أهلكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات » .

وقد اثار زواج زينب بنت جحش العديد من التهجم من المستشرقين وأعداء الاسلام على النبى .. فزعموا أن محمدا قد رآها بعد أن تزوجها مولاه زيد بن حارثة فهام بها حبا وطلقها من زوجهـــا وتزوجها ! ، هذه أكذوبة انساق لها للأسف بعض المؤرخين من أمثال الطبرى .. فلقد زوج النبى عليه الصلاة والسلام ابنة عمته زينب الى زيد ليلغى الفوارق بين الطبقات .. بين السادة والعبيد ، وكان الرسول يعرفها وهى تتدرج من الطفولة الى الصبا والشباب ، فلم تكن غريبة عن رسول الله .. وقد جاء زواجها من زيد بن حارثة لحكمة .. التشريع ، وكان الرسول يحب زيدا ، ولكن زينب لم تنس يومها أنها شريفة قرشية ، وما أكثر ما لاقى زيد من صدها له .. وكلما كان يشكو للرسول ذلك ، كان الرسول يقول له :

« امسك عليك زوجك واتق الله » .

وكان الأمر الالهى بزواج الرسول من زينب يحقق هدفين من أهداف التشريع الاسلامى :

١ — أن الرقيق الذى أعتق يمكن أن يتزوج من المرأة الحرة .. وأنه لا فرق بين عبد وسيد أمام الله الا بالتقوى .

٢ — أن التشريع الاسلامى يوضح أن الابن المتبنى ليس كالابن الحقيقى ولا يعامل معاملته كما جرى العرف فى الجاهلية ..

ومن هنا كان الأمر الالهى بتزويج النبى الى زينب . وقد نفذ الرسول هذا الأمر عندما نزل قوله تعالى :

« واذ تقول للذى انعم الله عليه وانعمت عليه ، أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حـــرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا » .

ولاشك أن ماكتبه الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه « حياة محمد » ورده على الاتهامات التى قالها المستشرقون والمنافقون حول هذه القصة من الوضوح بمكان ، فهو يفند ادعاءاتهم بقوله :

« ويكفى لهدم كل القصة من أساسها ، أن تعلم أن زينب بنت جحش هذه ، هى ابنة عمة رسول الله عليه السلام ، وأنها ربيت بعينه وعنايته . وأنه كان يعرفها ويعرف أهى ذات مفاتن أم لا قبل أن تتزوج زيدا ، وأنه شهدها فى نموها تحبـــو من الطفولة الى الصبا ، الى الشباب ، وأنه هو الذى خطبها على زيد مولاه » .

ويتابع هيكل حديثه :

« ان زواج الرسول من زينب لم يدفعه اليه ميل ولا عاطفة ، وانما يأتمر بحكم الله فيما أبطل من الحقوق المقررة للتبنى والادعاء ، ثم أشفق مما يمكن أن يقول الناس فى خرقه لعادة لهم قديمة متأصلة ،

فلم يرض له الله أن يخفى فى نفسه ما الله مبديه ، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه .

أفيبقى بعد ذلك أثر لهذه الأقاصيص التى يكررها بعض المستشرقين والمبشرين ؟ لكنها شهوة التبشير المكشوف تارة ، والتبشير باسم العلم تارة أخرى . والخصومة القديمة للاسلام تأصلت فى النفوس منذ الحروب الصليبية ، هى التى تملى على هؤلاء جميعا ما يكتبون ، وتجعلهم فى أمر زواج النبى ، وفى أمر زواجه من زينب بنت جحش ، يتجنون على التاريخ ، ويلتمسون أضعف الرواية قبه مما دس عليه ونسب اليه » .

.. ولقد كانت السيدة زينب بنت جحش كريمة ، محبة للمساكين .. ويكفى أن تعرف أنها كانت بجانب طاعتها لرسول الله .. كانت كثيرة الانفاق على المحتاجين ، حتى أنها تبرعت بكل نصيبها من العطاء المخصص لها فى زمن عمر بن الخطاب وكان قدره اثنى عشر ألف درهم الى فقراء المسلمين ، وقد توفيت السيدة زينب فى خلافة عمر بن الخطاب فى سنة عشرين من الهجرة وهى فى الثالثة والخمسين من عمرها .. وبذلك كانت أول من لحقت برسول الله عليه الصلاة والسلام .

● **الزوجة الثامنة : ريحانة بنت عمرو .. وهى يهودية وقد وقعت فى الأسر عقب هزيمة اليهود** ، وكانت من نصيب النبى ، ودعاها لله ورسوله ، ثم عزلها فى بيت أم المنذر بنت قيس وقد دخل الاسلام قلبها عندما استمعت الى الرسول يجيب على أسئلة بعض المسيحيين واليهود ، فقد سألوه عمن يؤمن بهم من الأنبياء .. فتلى عليهم قوله تعالى :

« قولوا آمنا بالله ، وما انزل الينا ، وما انزل الى ابراهيم ، واسماعيل واسحق ، ويعقوب والأسباط ، وماأوتى موسى وعيسى ، وماأوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ».

.. لقد أعلنت اسلامها واعتقها الرسول وتزوجها .

● **الزوجة التاسعة : جويرية بنت الحارث ••** أبوها من كبار زعماء اليهود وهو سيد بنى المصطلق ، وقد أسرت ، وأصبحت من نصيب ثابت بن قيس ، ولكنها هربت منه ولجأت الى الرسول وقالت له : يا رسول الله انا بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومى ، وقد أصابنى من الأمر ما لم يخف عليك فوقعت فى سهم ثابت بن قيس ، فكاتبته على نفسى وجئتك أستعينك على أمرى » .

قال لها الرسول : فهل لك فى خير من ذلك ؟

قالت : ما هو يا رسول الله ؟

قال الرسول : اقضى عنك كتابتك وأتزوجك .

قالت : نعم يا رسول الله .

قال : قد فعلت .

وعندما علموا بزواج الرسول منها ، أطلقوا سراح قومها على أساس انهم أصبحوا أصهار الرسول . .

ولقد عاشت السيدة جويرية حتى عهد معاوية بن أبى سفيان ودفنت فى البقيع .

* * *

الزوجة العاشرة : رملة بنت أبى سفيان •• بنت زعيم مكة وقائد المشركين (أبو سفيان بن حرب) . . وقد كانت متزوجة عبد الله بن جحش . . الذى أسلم وهاجر الى الحبشة ، غير أنه ارتد عن الاسلام ، وكانت قد أنجبت منه ابنته (حبيبة) وعز عليها أن يترك زوجها الاسلام ويعتنق النصرانية . . وعلم الرسول بمحنتها وهى فى الحبشة فتزوجها وهى هناك . . وكان بذلك يعوضها عن محنتها فقد تزوجت خير البشر . . كما أن زواج الرسول منها يجعل قلب أبيها يرق قليلا . . وهذا ما حدث عندما أسلم أبو سفيان

فيما بعد . ولقد ظلت ام حبيبة فى الحبشة ، إلى العام السابع الهجرى يوم فتح خيبر .. وظلت فى بيت رسول الله وتوفيت فى عهد اخيها معاوية بن ابى سفيان فى سنة ٤٤ هـ وقد عمرت ٦٧ عاما .

● **الزوجة الحادية عشرة كانت** (صــفية بنت حيى بن اخطب .. انها بنت زعيم اليهود حيى بن اخطب . وكان يريد الرسول بزواجــه منهــا أن يكف اليهود عن عداوتهم له .. ليتفرغ لنشر الاسلام وقد ضايقها نساء النبى حتى انها اشتكت له نصرفهن معها وكان الرسول يقول لها أن تقول لهن :

ــ انا ابنة نبى ، وابنة اخ نبى .. وزوج نبى والرسول يقصد انها تنسب الى ابيها موسى ، وأخيه هارون ، وزوجها محمد عليه الصلاة والسلام .

وقد كانت نساء النبى يعرن منها .. وظلت صفية فى بيت رسول الله ، وقد كانت تبعث الى عثمان بن عفان عندما حوصر بالطعام لأنها كانت تجاوره ، وقد عاشت رضى الله عنها الى خلافة معاوية فقد توفيت فى سنة خمسين هجرية ودفنت فى البقيع مع أمهات المؤمنين .

● **الزوجة الثانية عشرة كانت مارية القبطية** ، وكانت مما ملكت يداه ، أرسلها المقوقس عظيم مصر هدية للرسول .. وقد كان أبوها مصرى واسمه شمعون ، وأمها يونانية وقد ولدت فى قرية (حفن) .. وهى احدى قرى محافظة المنيا .. ثم عملت كوصيفة للمقوقس .. وجاءت الى المدينة فى السنة السابعة للهجرة ومعها اختها سيرين التى تزوجت الشاعر حسان بن ثابت . وقد عرض الرسول عليها الاسلام فأسلمت وتزوجها وأنجبت منه ابراهيم .. وكان الرسول فرحا سعيدا بابنه ابراهيم .. فقد مات أولاده من قبل ولم يبق له الا فاطمة الزهراء ، وكان يحمله ويطوف به بيوت أمهات المؤمنين ، ولكن ابراهيم مرض بعد ستة عشر شهرا من مولده، ومات فى حجر والده العظيم ، وقد تفجرت مشاعر الرحمة بين حنايا النبى وهو يرى فلذة كبده يودع الحياة فيقول :

« تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقــول الا ما يرضى ربنا ، وانا يا ابراهيم عليك لمحزونون ، وانا لله وانا اليه راجعون » .

لقد دفن ابراهيم فى البقيع ، ونصادف أن كسفت الشمس .

وقال الناس : ان الشمس انكسفت لموت ابراهيم وعندما بلغ ذلك الرسول قال :

« ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحيـــاته » .

ولقد مات الرسول بعد وفاة ابنه بشهور قليلة فقد توفى عليه الصلاة والسلام فى ربيع الأول من السنة الحادية عشر الهجرية .

ولقد حزنت مارية على موت ابنها والرسول .. فكانت تجد سلواها فى زيارة قبرهما ، وماتت بعدهم بحوالى خمس سنوات فى خلافة عمر بن الخطاب ، وكانت فى الثلاثين من عمرها .

● وكانت آخر نساء النبى ميمونة بنت الحارث .. وقد جاء زواجها منه عليه الصلاة والسلام ، بعد أن دخل الرسول مكة بعد صلح الحديبية لأداء فريضة الحج .. وقد أعجبت برة بنت الحارث أخت أم الفضل بنت الحارث زوجة العباس عم النبى بالرسول وأرادت أن تسلم وتتزوجه .. فقد وهبت نفسها للرسول . وما كان من العباس الا أن أخبر النبى برغبتها فوافق النبى وأصدقها ..٤ درهم . ونزل فيها قوله تعالى :

« وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين » ..

وكانت برة أرملة فى السادسة والعشرين من عمرها وقد أطلق عليها الرسول اسم « ميمونة » تيمنا .. فقد حج البيت مع فريق كبير من المؤمنين .

ولقد عاشت ميمونة فى بيت رسول الله شأنها شأن باقى أمهات المؤمنين ، وعاشت بعد الرسول خمسين عاما .. وتوفيت وهى فى الثمانين من عمرها فى سنة ٦١ هجرية ودفنت فى مكان يبعد عشرة أميال عن المدينة حسب وصيتها فى مكان يطلق عليه اسم (سرف) حيث بنى بها الرسول الكريم .

وكانت هى آخر نساء النبى . فقد أمره سبحانه وتعالى بالكف عن الزواج والاكتفاء بما أحله الله له .. فقد نزل قوله تعالى :

« لا يحل لك النساء من بعد ، ولا أن تبدل بهن من أزواج ، ولو أعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك ، وكان الله على كل شىء رقيبا » .

وقد مات الرسول عن تسع زوجات هن أمهات المؤمنين « سودة بنت زمعة ، وعائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، وهند أم سلمة ، وزينب بنت جحش ، وريحانة بنت عمرو ، ورسله بنت أبى سفيان ، وصفية بنت حيى بن أخطب ، وميمونة بنت الحارث » .

* * *

مما سبق تعرف ان الرسول الكريم تزوج خديجة بنت خويلد ومكث معها وحدها منذ تزوجها وهو فى الخامسة والعشرين من عمره الى أن ماتت وكانت فى حوالى الخمسين من عمرها ، وهو لم يتزوج بزوجاته الأخريات الا فى فترات الحروب . وكان عمره بين الخامسة والخمسين والستين ، أى أنه تزوج باقى أمهات المؤمنين فى مدى خمس سنوات ، وواضح أن هذا الزواج لم يكن بسبب المتعة أو الشهوة فقد كان عليه الصلاة والسلام تجاوز سن الشباب . وكانت حياته كلها معارك وكفاح فى سبيل نشر دين الله .. وقد كان لزواجه أسباب كثيرة كما سبق أن شرحنا فيها العطف أو الرحمة أو لظروف سياسية أو لغرض تشريع معين ..

.. لم يكن الرسول رجل شهوة .. فقد كان نهاره كله كفاح فى سبيل الدعوة .. وكان معظم ليله يقضيه متعبدا .

« يا ايها المزمل قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا او زد عليه ورتل القرآن ترتيلا وقوله : أن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليـل والنهـار » .

ورجل هذه حياته .. عبادة لله فى الليل والنهار ، وجهاد فى سبيل نشر الدعوة ، وسهر على راحة المسلمين وتوضيح مبادىء الدين لهم .. انه يعيش بالناس وللناس ، وقلبه متعلق بالله .. لا يمكن أن يكون زواجه للمتعة الجنسية ، انه كان ينفذ أوامر الله لحكمة عليا يعلمها الله كما شرحنا .. **فقد كانت حياة الرسول العظيم قدوة ومثالا لكل من يريد أن يسير فى طريق تحفه الأنوار من كل جانب ، لأنه مثال الانسان الكامل ، أو كما وصفه القرآن الكريم بأنه على خلق عظيم .**

أيام الرسول الأخيرة

ما من مرة قرأت فيها شيئا عن حياة الرسول الا وتداعت الى ذهنى خطبة الوداع الخالدة .. وسرح خيالى الى تلك الأيام المجيدة ، أيام رسول الله ، وكيف حول ظلام الجزيرة العربية إلى نور ، غمر انحاء الجزيرة فى حياته ، وانطلق يعبر القارات بعد أن انتقل الى الرفيق الأعلى يبشر بالقيم العليا أمما طالما أضناها سياط الاستعمار ، وجثم على انفاسها ألوان من العبودية والهوان ، وكانت تتطلع الى يوم الخلاص ..

لقد ذهب الرسول عليه الصلاة والسلام فى الثامن من ذى الحجة الى منى ، وأقام خيامه ، وصلى فروض اليوم ، ثم قضى الليل حتى مطلع الفجر من يوم الحج ، واتجه الى جبل عرفات .

وصعد الجبل وحوله آلاف المسلمين ، وحمد الله وأثنى عليه وقال :

« أيها الناس ، اسمعوا قولى ، فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا .

أيها الناس ، اسمعوا قولى ، فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا .

وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها .

وان كل ربا مهدر ، ولكن لـكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون

قضى الله أنه لا ربا . وان ربا عباس بن عبد المطلب مهـدور كله .

وان كل دم كان فى الجاهلية مهدور ، وان أول دمائكم أضـع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب

اما بعد . أيها الناس ، فان الشـيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه ان يطع فيما سوى ذلك فقد رضى مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم

أيها الناس انما النسىء زيادة فى الكفر يضـل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم

وان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض ، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ، ورجب مفرد بين جمادى وشعبان .

أما بعد ، أيها الناس . فان لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حق ، لكم عليهن الا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، وعليهن الا يأتين بفاحشة مبينة ، فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيرا فانهن عندكم عوان . ولا يملكن لانفسهن شيئا . وانكم انمـا أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله .

فاعقلوا أيها الناس قولى ، فانى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما أن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا .. أمرا بينا : كتاب الله وسنة رسـوله .

ايها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلموا ان كل مسلم اخ للمسلم . وان المسلمين اخوة . فلا يحل لامرىء من اخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلموا انفسكم

اللهم هل بلغت » .

و .. عندما اتم الرسول خطابه تلى قوله تعالى :

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ، فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »

.. وما كاد الرسول يقرأ هذه الآية حتى بكى عمر بن الخطاب وساله الرسول :

ـــ ما يبكيك يا عمر ؟

ـــ ابكانى انا كنا فى زيادة ، اما اذا أكمل فانه لا يكمل شىء الا نقص .

ـــ صدقت ..

لقد ساد الناس صمت .. ان هذه الآيات تنعى رسول الله ..

وانتقل الرسول العظيم الى الرفيق الأعلى بعد أن أدى الأمانة على أكمل وجه ، ويكفى أنه وحده جابه عالما ظالما قاسيا لايرحم ، فحوله الى مجتمع له حضارة ، وله مثل عليا .. وله قيم يعيش لها وبها ، وربط بين الأرض والسماء .. ان الانسان يعيش حياته فى ظل هذا الدين العظيم ، وهو يؤمن ايمانا عميقا بخالق الأرض والسماء وما بينهما وما تحت الثرى .. وايمانه هذا يدفعه الى أن يسلك مع نفسه ومع مجتمعه سلوكا مستنيرا ، ويدفع الفرد الى التراحم مع أخيه .. فقد حدد هذا الدين العلاقات بين الأفراد بعضهم مع بعض .. وبينهم وبين انفسهم ، وبينهم وبين الله ..

دين مثل هذا الدين العظيم لو تمسك به المؤمن ، وحافظ على قيمه وتعاليمه فانه يعيش فى راحة نفسية . الايمان يعمر قلبه ، والرضا بقضاء الله وقدره يجعله يعيش بعيدا عن العقد والأمراض

النفسية .. وتمسكه بتعاليمه يضفى على المجتمع حياة مستقرة سعيدة .. فالغنى يعطي الفقير ، والفقير لا يحقد على الغنى طالما قد أخذ حقه .. وفى ظل هذه الروح العظيمة تتقدم المجتمعات ، وتأخذ حظا صاعدا نحو كلما هو أكثر اشراقا ونبلا .

.. لقد مات رسول الله ، وخرج على بن أبى طالب يقول :

— بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنبياء وأخبار السماء ، وخصصت حتى صرت مسليا عمن سواك ، وعممت حتى صار الناس فيك سواء . ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لانفذنا عليك ماء الشئون ، ولكان الداء مماطلا ، والكمد محالفا ، .... ولكنه ما لا يملك رده ، ولا يستطاع دفعه . بأبى أنت وأمى . اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك .

وكادت أن تحدث فتنة حينما حاول أبو سفيان بن حرب أن يشعلها عندما علم بأن أبا بكر أصبح خليفة للمسلمين .. فقال :

— وليتم على هذا الأمر أذل بيت فى قريش ، أما والله لئن شئت لأملأنها على أبى فضيل خيلا ورجلا .

وهنا أوقف على بن ابى طالب هذه الفتنة ، فقد رد عليه قائلا :

— طالما غششت الاسلام وأهله فما ضررتم شيئا ! لا حاجة لنا الى خيلك ورجلك .

وأخذ أبو بكر بيعة المسلمين .. وكان والده مازال حيا وقال له الناس :

— قد ولى ابنك الخلافة .

فقرأ :

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء » .

وسأل أبو قحافة :

ـــ لم ولوه ؟

قالوا :

ـــ لسنه .

ـــ أنا أسن منه .

وكانت خلافة أبي بكر الصديق امتدادا لعصر رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فقد قضى على فتنة الردة .

ولم يغير شيئا مما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسير الجيوش لمجابهة أقوى دولتين عرفهما العالم القديم . دولتي الفرس والروم ، و .. كانت بداية النهاية لعصر تهرأ وشاخ ، وبداية نشر ألوية الاسلام الذي انتشر فيما بعد بسرعة البرق الى مختلف قارات الدنيا . ليقيم على أنقاض العالم القديم عالما مشرقا بالنور والأمل . تحدوه حضارة الاسلام الشابة التي غزت القلوب والعقول ومدت نور الاسلام الى أماكن لم تكن تخطر على البال .

هذه هي بعض المشاهد من السيرة العطرة .. سيرة سيد البشر ... الذي أخذ يدعو الى الاسلام بصلابة لا تعرف المساومة ولا أنصاف الحلول .

« والله يا عماه . لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

. .لقد رحل الرسول الحبيب الى الرفيق الأعلى بعد أن ملأ الدنيا نورا .. وصدق القرآن الكريم :

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » .

« وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين » .

الفهـــرس

ما رأيك ؟

ـ وبعد يا عزيزى القارىء الكريم ...

فهذه رسالة اسلامية يقدمها لك المجلس الأعلى للشئون الاسـلامية فى الخامس عشر من كل شهر عربى ، لعلها تحوز رضاك ، وترد على بعض الأسئلة التى تراودك ، وتدور بخلد كل مسـلم غيور على دينـه ، حريص على الاستزادة من مناهل الاسلام العذبة .

اكتب لنا برأيك فيها ، وما تراه من توجيهات تهدف أولا وأخيرا الى خدمة أجل رسالة وأتم هدف .وثق أننا سنكون عند حسن ظنك ، وسنلبى طلبك وسنكون رسالتك موضع الاعتبار والتقدير فنرد عليها اذا كانت حرية بذلك .

والله نسأل أن يلهمك السداد والتوفيق .

على أن يكون خطابك متضمنا البيانات التالية :

الاسم : . . . .

العنوان : . . . .

الوظيفة : . . . .

ويرسل الى المجلس الأعلى للشئون الاسلامية

القـاهرة ٣ شارع الأمير قدادار متفرع من ميدان التحـرير .

(قسم الرسائل والتراث)

رقم الايداع ١٩٧٧/٢١٧٣

الترقيم الدولى ٠ —٣٧—٢٤١—٩٧٧—ISBN

مطابع الاهرام التجارية